المنّ والسّلوى

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: ٥٧].

ساعة تسمع أنزلنا فمعنى ذلك أنها جاءت من علو.. لا بد أن تكون أعلى من قدرتك، لذلك عندما نزرع لا نقول: إن الله قد أنزل علينا الزرع؛ لأننا استخدمنا الأسباب، ولكن عندما تأتينا أشياء بلا أسباب أو بقدرة فوق الأسباب. نقول: إنها أُنزِلت علينا؛ لأنها من عند العلي الأعلى سبحانه وتعالى.

والمنّ(١) هو: نوع من الغذاء لونه أبيض، ينزل على الشجر، ويتجمع مثل قطرات الزئبق، ولا يزال موجوداً إلى الآن في العراق. فهناك نوع من الأشجار يتساقط عليها المن حتى الآن. ويأتي الناس ويضعون ملاءة بيضاء تحت الشجرة، ثم يهزونها، فيتساقط ما على الورق من قطرات متجمدة بيضاء، فيأخذونها على الملاءات ويجمعونها ويأكلونها. وهذا المن فيه حلاوة طبيعية، فهو في طعم القشدة وليونتها، وفي حلاوة عسل النحل.

والسلوى(٢) هي: الطير الذي يسمونه السّمان، وهو يأتي من أماكن بعيدة،

---

(١) قال الماوردي: قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ فيه سبعة أقاويل:

أحدها: أن المن ما سقط على الشجر فيأكله الناس، وهو قول ابن عباس.

والثاني: أن المن صمغه؛ وهو قول مجاهد.

والثالث: أن المن شراب، كان ينزل عليهم يشربونه بعد مزجه بالماء؛ وهو قول الربيع بن أنس.

والرابع: أن المن عسل كان ينزل عليهم؛ وهو قول ابن زيد.

والخامس: أن المن الخبز الرقاق؛ وهو قول وهب.

والسادس: أنه الزنجبيل؛ وهو قول السدي.

والسابع: أنه الترنجين.

النكت والعيون [١/ ١٢٤]

(٢) قال الماوردي: في السّلوى قولان:

أحدهما: أنه السّماني.

=

ثم يتساقط من شدة التعب لطول المسافة التي طارها، وهو في هذا لا يخضع لأسبابك؛ لأنه من بيئة بعيدة، فأنت لا ربيته ولا أطعمته، وهنا تكون كلمة أنزلنا مطابقة للمن والسلوى؛ فهذا الطعام فوق قدراتهم وأسبابهم، هو من عند الله سبحانه.

❁ ❁ ❁

= **والثاني**: أنه طائر يشبه السُّماني، كانت تحشره عليهم الريح الجنوب، وهذا قول ابن عباس، واشتقاقه من السّلو، كأنه مسلي عن غيره.

النكت والعيون [١/ ١٢٤]

انفجار الماء من الحجر

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[١] [البقرة: ٦٠].

كلمة ﴿وَإِذِ﴾، تكررت في قصة قوم موسى أكثر من مرة، وفي عدة آيات.. فالحق يقول:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾[٢] [البقرة: ٤٩]؛ أي: اذكروا يا قوم موسى كيف أنجاكم الله من آل فرعون.

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ تقديره: وإذا استسقانا موسى لقومه، والاستسقاء: طلب السقي، والعرب تقول: سقيته، وأسقيته، فقيل: إنهما لغتان ومعناهما واحد، وقيل: بل سقيته من سقي الشفة، وأسقيته: دللته على الماء.

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ وفي الكلام محذوف، وتقديره: فضرب فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً. والانفجار: الانشقاق، والانبجاس أضيق منه، لأنه يكون انبجاساً ثم يصير انفجاراً.

والعين من الأسماء المشتركة: فالعين من الماء مشبهة بالعين من الحيوان لخروج الماء منها، كخروج الدمع من عين الحيوان.

فأمر موسى عند استسقائه، أن يضرب بعصاه حجراً مربعاً طوريا (من الطور)، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، من كل جانب ثلاثة أعين.

النكت والعيون [١/ ١٢٧، ١٢٨]

(٢) ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم﴾ تقديره: واذكروا إذا نجيناكم، وهذه النعم على آبائهم كانت. وفي آل فرعون ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم أهل مصر؛ قاله مقاتل.

والثاني: أهل بيته خاصة؛ قاله أبو عبيدة.

والثالث: أتباعه على دينه، قاله الزجاج.

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ أي: يولونكم. يقال: فلان يسومك خسفاً، أي: يوليك ذلاً واستخفافاً. و﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: شديده.

=

والحق يقول: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً . . . ﴾[1] [البقرة: ٥١].

= وكان الزجاج يرى أن قوله: ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ تفسير لقوله: ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ وأبى هذا بعض أهل العلم؛ فقال: قد فرق الله بينهما في موضع آخر، فقال: ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٦] وإنما سوء العذاب: استخدامهم في أصعب الأعمال.

وقال الفراء: الموضع الذي فيه «الواو»، يبين أنه قد مسهم من العذاب غير الذبح، فكأنه قال: يعذبونكم بغير الذبح وبالذبح.

زاد المسير باختصار [١/ ٦٤، ٦٥]

قال الماوردي: قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ يعني من قوم فرعون، وآل الرجل هم: الذين تؤول أمورهم إليه؛ إما في نسب، أو في صحبة، واختلف في الآل والأهل على قولين.

أحدهما: أنهما سواء.

والثاني: وهو قول الكسائي: أنه يقال: آل الرجل، إذا ذُكر اسمه، فإن كُنى عنه قيل: أهله، ولم يُقل آله، كما يقال: أهل العلم، وأهل البصرة، ولا يقال: آل العلم، وآل البصرة.

وفرعون: قيل: إنه ذلك الرجل بعينه، وقيل: إنه اسم كل ملكٍ من ملوك العمالقة، مثل قيصر للروم، وكسرى للفرس، وأن اسم فرعون موسى: الوليد بن مصعب.

وفي قوله تعالى: ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ ثلاثة تأويلات:

أحدها: معناه يولونكم، من قولهم: سامه خطة خَسْفٍ، إذا أولاه.

والثاني: يُجَشِّمونكم الأعمال الشاقة.

والثالث: يزيدونكم على سوء العذاب، ومنه مساومة البيع، إنما هو أن يزيد البائع المشتري على ثمن، ويزيد المشتري على ثمن، وهذا قول المفضل.

النكت والعيون [١/ ١١٧، ١١٨]

(١) ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا ﴾ هو من المفاعلة التي تكون من الواحد كقولهم: عافاك الله، وعاقبت اللص، وطارقت النعل.

وقال الزجاج: كان من الله الأمر ومن موسى القبول، فلذلك ذكر بلفظ المواعدة، وقرأ أهل البصرة: ﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا ﴾ من الوعد.

﴿ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ أي انقضاؤها: ثلاثين من ذي القعدة وعشر من ذي الحجة، وقرن التاريخ بالليل دون النهار؛ لأن شهور العرب وضعت على سير القمر، والهلال إنما يهل بالليل، وقيل: لأن الظلمة أقدم من الضوء، وخلق الليل قبل النهار.

معالم التنزيل [١/ ٩٤]=

أي: اذكروا يا قوم موسى أن الله قد واعد موسى أن يعطيه التوراة بعد صيام أربعين ليلة.

والحق يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾[1] [البقرة: ٥٤]

أي: أن الحق يذكر قوم موسى بما قاله موسى لهم عندما اتخذوا العجل إلهاً من دون الله.

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[2]

= قال ابن الجوزي: لماذا كان هذا الوعد؟ فيه قولان:

أحدهما: لأخذ التوراة.

والثاني: للتكليم.

زاد المسير [١/ ٦٧]

(١) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ الذين عبدوا العجل: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾ ضررتم بأنفسكم.

معالم التنزيل [١/ ٩٦]

(٢) قال البغوي: وذلك أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، فاختار موسى سبعين رجلاً من قومه من خيارهم، فقال لهم: صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم، ففعلوا، فخرج بهم موسى إلى «طور سيناء» لميقات ربه، فقالوا لموسى: اطلب لنا نسمع كلام ربنا، فقال لهم: أفعل، فلما دنا موسى إلى «طور سيناء» من الجبل وقع عليه عمود الغمام وتغشى الجبل كله، فدخل في الغمام وقال للقوم: ادنوا، فدنوا حتى دخلوا في الغمام وخروا سجداً، وكان موسى إذا كلمه ربه وقع على وجهه نور ساطع، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونهم الحجاب، وسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه، وأسمعهم الله: إني أنا الله لا إله إلا أنا ذو بكة، أخرجتكم من أرض مصر بيد شديدة، فاعبدوني ولا تعبدوا غيري، فلما فرغ موسى وانكشف الغمام أقبل إليهم، فقالوا له: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ معاينة، وذلك أن العرب تجعل العلم بالقلب رؤية، فقال: جهرة ليعلم أن المراد منه العيان.

معالم التنزيل [١/ ٩٦، ٩٧]

قال الماوردي: قوله عزّ وجلّ: ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ فيه تأويلان:

أحدهما: علانية؛ وهو قول ابن عباس.

والثاني: عياناً؛ وهو قول قتادة.

وأصل الجهر الظهور، ومنه الجهر بالقراءة، إنما هو إظهارها، والمجاهرة بالمعاصي: المظاهرة بها.

النكت والعيون [١/ ١٢٣]

[البقرة: ٥٥] أي: أن الحق يذكر قوم موسى بما قالوه عندما طالبوا موسى عليه السلام برؤية الله جهرة كدليل على ماديتهم وقلة يقينهم الإيماني.

وتستمر ﴿وَإِذْ﴾ في مقدمة كل قول يريد الله أن يذكّر بها بني إسرائيل، إلى أن يقول الحق: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾(١) [البقرة: ٥٨] إذن.. فكل ﴿وَإِذْ﴾ في مقدمة هذه الآيات هي تذكير من المولى عزّ وجلّ لبني إسرائيل بمواقفهم السابقة، التي أنعم فيها الله عليهم بنعم كثيرة، من بينها نعمة الظل عندما كانوا في التيه وازداد عطشهم، واستسقى لهم نبي الله موسى عليه السلام. إن الحق يقص هذه الآيات على النبي محمد ﷺ ليذكر بني إسرائيل المعاصرين لرسول الله ﷺ ما أنعم الله به على أجدادهم، وعليهم ألا يرفضوا النعمة الكبرى، وهي استقبال الإيمان بمحمد ﷺ نبياً رسولاً من عند الله الموجود صفته والبشارة به في كتبهم.

إن الحق يذكّر بني إسرائيل بموقفهم في التيه، عندما كانت الشمس محرقة، وطلبوا الماء ليشربوا، بعد أن كاد الجفاف يصل بهم إلى درجة الهلاك، فلا ماء يروي زرعاً أو يشرب منه ضرع، هكذا وصل الجدب إلى منتهاه، فطلب موسى السُقيا، ذلك أن موسى يعلم أن الخالق كريم بعباده، وهو مالك الملك، بيده خزائن كل شيء، وقد شرع لنا رسول الله ﷺ صلاة الاستسقاء حتى بعد انتقاله إلى جوار ربه الكريم، وهذا أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حين اشتد الجفاف، وخرج بالمؤمنين، ومعهم العباس عم رسول الله ﷺ ورفع يديه إلى السماء وقال: اللهم كنا نتوسل إليك برسل الله فتسقينا؟ وإننا نتوسل إليك يا رب بعمّ نبيك العباس فاسقنا(٢).

ولذلك استجاب رؤوف الرحيم لضراعة موسى عليه السلام لما استسقى

---

(١) في المراد بهذه القرية قولان:

أحدهما: أنها بيت المقدس، قاله ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسدي والربيع. ورُوي عن ابن عباس أنها أريحا. قال السدي: وأريحا: هي أرض بيت المقدس.

والثاني: أنها قرية من أداني قرى الشام، قاله وهب.

زاد المسير [١/ ٧٢]

(٢) عن أنس: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا، وإنا لنتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. قال: فيسقون».

أخرجه البخاري [١٠١٠]

لقومه، رغم تعنتهم، ورغم تماديهم في المعاصي، ولكن النبي دائماً أرحم من المؤمنين بأنفسهم، حتى ولو كانوا عصاة.

وتتجلى معجزة الحق ليعلم قوم العَنَتِ أنه سبحانه قادر قدير، رؤوف رحيم. إنهم في الصحراء.. لا آبار ولا أنهار.. والعيون قد جفت.. وكأن الخالق يريد للماء أن يخرج من مكان لا يُتصور أبداً أن يخرج منه ماء؛ إنه الحجر. وتلك عظمة القدرة المطلقة. إن العصا أقل صلابة من الحجر، ومع ذلك يتفجر الماء من الحجر الصلد حال ضربه بالعصا.

وفي ذلك يقول الشاعر:

أيا هازئاً من صنوف القدر ... بنفسك تعنف لا بالقدر
ويا ضارب صخرة بالعصا ... ضربت العصا أم ضربت الحجر

كأن العصا هنا مجرد رمز للإشارة إلى الماء فينفجر. وكأن الحق يريد أن يلفتهم إلى أن النعمة تأتي إليهم مركبة؛ فيعلمهم أنه قادر على أن يأتي لهم بالماء العذب من الحجر الصلد، لأن المسألة بالنسبة للخالق الأكرم ليست قوانين.. إنها بالنسبة لله أمر: ﴿ كُن فَيَكُونُ ... ﴾. إذ بمجرد أن يضرب موسى بعصاه.. ينفجر منه الماء[1].

وعندما خرج الماء إلى بني إسرائيل بتلك الصورة التي تذهل العقل البشري ماذا حدث؟ إنه التعنت.. قالوا لموسى عليه السلام: هب أننا يا موسى لم نذهب إلى مكان فيه حجر، فحملوا الحجر معهم.. ثم قالوا: لنفترض أن عصاك فقدت أنموت عطشاً[2].

بعد هذه الرحلة الطويلة والآيات الكثيرة لم يفهم القوم أن المسألة ليست

---

(١) قال القرطبي: وقد كان تعالى قادراً على تفجير الماء، وفلق الحجر من غير ضرب، لكن أراد أن يربط المسببات بالأسباب؛ حكمة منه للعباد في وصولهم إلى المراد، وليرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم في المعاد.

تفسير القرطبي [١/ ٤١٩]

(٢) قال الزمخشري: ورُوي أنهم قالوا: كيف بنا لو أفضينا إلى أرض ليست فيها حجارة، فحمل حجراً في مخلاته، فحيثما نزلوا ألقاه، وقيل: كان يضربه بعصاه فينفجر، ويضربه بها فييبس، فقالوا: إن فقد موسى عصاه متنا عطشاً، فأوحي إليه لا تقرع الحجارة وكَلِّمْها تُطِعْك لعلهم يعتبرون.

الكشاف [١/ ٧١]

عصاً.. ولا حجراً.. إن هذه أمور بشرية، وفارق بين الأسباب التي تُوجِد الأشياء.. وبين الأسباب التي تُوجَد معها الأشياء.

أي أن وجود الأشياء في هذا المواقف، وعلى هذا النحو هي دليل من الحق سبحانه على صدق رسوله، ووجوب اتباعه والإيمان به.

وهكذا كان قصور قوم موسى عن استيعاب نعمة الخالق عليهم في انفجار الماء من الحجر بعد أن ضربه موسى بالعصا.. فظنوا أن تلك العصا تملك القدرة على إخراج الماء.. وأن ذلك الحجر وحده هو القادر على إخراج الماء.. ونسوا أن وراء كل ذلك قدرة القادر ليكون لهم عبرة وعظة. ولما ضرب موسى الحجر بعصاه انفجر الماء من اثنتي عشرة عيناً منه(١).. وهذه معجزة أخرى من الله لهم؛ لأن قوم موسى كانوا أسباطاً اثني عشر، وكل سبط من الأسباط له قوم.

وقوله تعالى: ﴿ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾(٢) [البقرة: ٦٠]. يعني أن كل قوم صارت لهم أعين.

---

(١) قال البغوي: قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَجَرَ ﴾ اختلفوا فيه قال وهب: لم يكن حجراً معيناً بل كان موسى يضرب أي حجر كان من عرض الحجارة فينفجر عيوناً لكل سبط عين، وكانوا اثني عشر سبطاً ثم تسيل كل عين في جدول إلى السبط الذي أمر أن يسقيهم. وقال الآخرون: كان حجراً معيناً بدليل أنه عرف بالألف واللام.

معالم التنزيل [١/ ١٠٠]

قال ابن الجوزي: وفي الحجر قولان:

أحدهما: أنه حجر معروف عُيّن لموسى؛ قاله ابن عباس، وابن جبير، وقتادة، وعطية، وابن زيد، ومقاتل، واختلفوا في صفته على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه كان حجراً مربعاً؛ قاله ابن عباس.

والثاني: كان مثل رأس الثور؛ قاله عطية.

والثالث: مثل رأس الشاة؛ قاله ابن زيد.

والقول الثاني: أنه أمر بِضرب أي حجر كان، والأول أثبت.

زاد المسير [١/ ٧٤]

(٢) قال القرطبي: ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ يعني أن لكل سبط منهم عيناً قد عرفها لا يشرب من غيرها. والمشرب: موضع الشرب. وقيل: المشروب. والأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب، وهم ذرية الاثني عشر، أولاد يعقوب عليه السلام، وكان لكل سبط عين من تلك العيون لا يتعداها.

قال عطاء: كان للحجر أربعة أوجه، يخرج من كل وجه ثلاث أعين، لكل سبط عين لا =

أي أن الحجر تلقى الأمر الإلهي بأن يتوزع الماء الخارج منه في مسارات طويلة تسمح لكل سبط أن يأخذ حاجته من الماء، وبعد ذلك يضرب موسى الحجر فيجف ويعود يابساً[١].

ولو تأملنا كلمة ﴿فَانفَجَرَتْ﴾[٢]، تجدها تدل على الاندفاع والتدفق. . أي أن الماء سال منها بقوة. أي لم يكن الأمر بمجرد خروج قطرات قليلة من الماء. قال أمير الشعراء شوقي:

سبحانك اللّهم خير معلم علمت بالقلم القرون الأولى
أرسلت بالتوراة موسى مرشداً وابن البتول فعلّم الإنجيلا
وفجرت ينبوع البيان محمداً فسقى الحديث وناول التنزيلا[٣]

فكأن الرسالات السابقة على رسول اللّه ﷺ هي للتبشير بينبوع البيان المحكم: القرآن الكريم.

وعندما ننظر بالتأمل إلى دقة خروج الماء من الحجر نلحظ أن الحجر مكعب له سطح ملاصق للأرض وجوانب أربعة تفجرت منها المياه، وله سطح أعلى هو الذي ضرب عليه موسى بالعصا[٤]. . فكأن كل جهة من جهات الحجر انفجرت

= يخالطهم سواهم. وبلغنا أنه كان في كل سبط خمسون ألف مقاتل سوى خيلهم ودوابهم.
تفسير القرطبي [١/ ٤٢١]

(١) قال البغوي: وقيل: كان من الكَذّان[١] فيه اثنتا عشرة حفرة، ينبع من كل حفرة عين ماء عذب، فإذا فرغوا وأراد موسى حمله ضرب بعصاه فيذهب الماء.
معالم التنزيل [١/ ١٠٠]

(٢) قال البغوي: وأكثر أهل التفسير يقولون: انبجست وانفجرت واحد، وقال أبو عمرو ابن العلاء: انبجست: عرقت، وانفجرت أي: سالت، فذلك قوله تعالى: ﴿فَانفَجَرَتْ﴾ أي: فضرب فانفجرت أي سالت منه.
معالم التنزيل [١/ ١٠٠]

وقال ابن عطية: والانفجار انصداع شيء عن شيء، ومنه الفجر.
المحرر الوجيز [١/ ١٥٢]

(٣) الأبيات من قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي بعنوان: العلم، والتعليم، وواجب العلم.
الشوقيات [١/ ١٤١]

(٤) قال ابن عباس: كان حجراً خفيفاً مربعاً على قدر رأس الرجل، كان يضعه في مخلاته، =

---

(١) الكذانة: حجارة كأنها المدَرُ، فيها رخاوة، وربما كانت نجرة، وجمعها: الكذان.
لسان العرب: [١٣/ ٣٥٧]

منها ثلاث عيون، ذلك أن الضرب على الحجر بعصا، هو الذي فجر العيون الثلاث من كل جانب، كما أراد الله. أي أن العيون لم تخرج من السطح الأعلى للحجر الذي تلقى الضربة، ولم يأت الماء من أسفل الحجر أو قاعدته، إنما انفجرت العيون من الجوانب.

إذن.. عندما يقول الحق: ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ فنحن نفهم أنها عيون ماء جارية. وعندما يقول الحق: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ فهذا دليل على أن الماء قد وصل إلى كل سبط من الأسباط الاثني عشر، التي كان يتكون منها قوم موسى.

= فإذا احتاجوا إلى الماء وضعه وضربه بعصاه.

وقال عطاء: كان للحجر أربعة وجوه لكل وجه ثلاث أعين لكل سبط عين.

وقيل: كان الحجر رخاماً.

وقيل: كان من الكذّان فيه اثنتا عشرة حفرة، ينبع من كل حفرة عين ماء عذب، فإذا فرغوا وأراد موسى حمله ضرب بعصاه فيذهب الماء، وكان يسقي كل يوم ستمائة ألف.

وقال سعيد بن جبير: هو الحجر الذي وضع موسى ثوبه عليه ليغتسل، ففرّ بثوبه ومرّ به على ملأ من بني إسرائيل حين رَموه بالأدرة، فلما وقف أتاه جبريل فقال: إن الله تعالى يقول: ارفع هذا الحجر فلي فيه قدرة، ولك فيه معجزة، فرفعه ووضعه في مخلاته.

قال عطاء: كان يضربه موسى اثنتي عشرة ضربة فيظهر على موضع كل ضربة مثل ثدي المرأة، فيعرق ثم تتفجر الأنهار، ثم تسيل.

معالم التنزيل [١/ ١٠٠]

رفع الجبل فوق بني إسرائيل

يقول الحق جلّ وعلا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١] [البقرة: ٦٣].

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ عهدكم يا معشر اليهود ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ وهو الجبل بالسريانية في قول بعضهم، وهو قول مجاهد.

وقيل: ما من لغة في الدنيا إلا وهي في القرآن.

وقال الأكثرون: ليس في القرآن لغة غير لغة العرب؛ لقوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وإنما هذا وأشباهه وقع وفاقاً بين اللغتين.

وقال ابن عباس: أمر اللّٰه تعالى جبلاً من جبال فلسطين فانقلع من أصله حتى قام على رؤوسهم؛ وذلك لأن اللّٰه تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام، فأمر موسى قومه أن يقبلوها ويعملوا بأحكامها فأبوا أن يقبلوها للآصار والأثقال التي هي فيها، وكانت شريعة ثقيلة فأمر اللّٰه تعالى جبريل عليه السلام فقلع جبلاً على قدر عسكرهم، وكان فرسخاً في فرسخ، فرفعه فوق رؤوسهم مقدار قامة الرجل كالظلة، وقال لهم: إن لم تقبلوا التوراة أرسلت هذا الجبل عليكم.

وقال عطاء عن ابن عباس رضي اللّٰه عنهما: رفع اللّٰه فوق رؤوسهم الطور، وبعث ناراً من قِبَل وجوههم، وأتاهم البحر المالح من خلفهم.

﴿خُذُوا﴾ أي قلنا لهم: خذوا، ﴿مَا آتَيْنَاكُم﴾ أعطيناكم ﴿بِقُوَّةٍ﴾ الجد والاجتهاد والمواظبة، ﴿وَاذْكُرُوا﴾ وادرسوا ﴿مَا فِيهِ﴾ وقيل: احفظوه واعملوا به، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لكي تنجوا من الهلاك في الدنيا والعذاب في العقبى، فإن قبلتم وإلا رضختكم بهذا الجبل، وأغرقتكم في هذا البحر، وأحرقتكم بهذه النار، فلما رأوا أن لا مهرب لهم عنها قبلوا وسجدوا، وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجود فصار سنة لليهود، ولا يسجدون إلا على أنصاف وجوههم، ويقولون: بهذا السجود رفع العذاب عنا.

معالم التنزيل [١/ ١٠٣، ١٠٤]

قال الماوردي: في ﴿وَالطُّورِ﴾ ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه اسم الجبل، الذي كلّم اللّٰه عليه موسى، وأنزلت عليه التوراة دون غيره؛ وهذه رواية ابن جريج عن ابن عباس.

=

هؤلاء الذين يدَّعون أنهم أبناء نبي اللَّه إسرائيل، ويزعمون أنهم على شريعة موسى عليه السلام، ثم حرَّفوا في التوراة من بعد ذلك، يخاطبهم اللَّه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَإِذْ﴾ ليذكرهم بالظرف الزماني والمكاني الذي وقعت فيه أحداث بني إسرائيل، وسلوكهم مع موسى عليه السلام.

يذكرهم الحق سبحانه بالأحداث الحقيقية التي مرت بآبائهم وفضل اللَّه ونعمه عليهم.

إن اللَّه يلفت اليهود الذين عاشوا في عهد رسول اللَّه ﷺ إلى أن اللَّه سبحانه وتعالى نجَّى آباءهم من فرعون الذي كان يستحيي النساء ويقتل الرجال، ثم أنجاهم مرة أخرى بأن جعل لهم البحر يبساً؛ ليعبروا مع موسى عليه السلام فراراً من فرعون وجنده، وأغرق فرعون ومن معه آية لهم ثم أنزل عليهم المن والسلوى، وفجّر لهم الحجر ليخرج منه الماء، وكل هذه آيات ونعم عاش في كنفها بنو إسرائيل ردحاً طويلاً من الزمن، إلا أنهم عتوا عن أمر ربهم، وتمردوا على رسولهم، وفي أول اختبار حقيقي لإيمانهم عبدوا العجل أثناء ذهاب موسى لتلقي

= **والثاني**: أن الطور ما أنبت من الجبال خاصة، دون ما لم ينبت؛ وهذه رواية الضحاك عن ابن عباس.

والثالث: أن الطور اسم لكل جبل؛ وهو قول مجاهد، وقتادة، إلا أن مجاهداً قال: هو اسم كل جبل بالسريانية، وقال قتادة: بل هو اسم عربي، قال العجاج:

دانى جناحيه من الطور فمر ... تقضي البازي إذا البازي كسر

قال مجاهد: رفع الجبل فوقهم كالظلة، فقيل: لتؤمنن أو ليقعن عليكم، فآمنوا.

النكت والعيون [١/ ١٣٤]

قال ابن الجوزي في قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: وفي المراد: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أربعة أقوال:

أحدها: الجد والاجتهاد؛ قاله ابن عباس وقتادة والسدي.

والثاني: الطاعة؛ قاله أبو العالية.

والثالث: العمل بما فيه؛ قاله مجاهد.

والرابع: الصدق؛ قاله ابن زيد.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ قولان:

أحدهما: اذكروا ما تضمنه من الثواب والعقاب؛ قاله ابن عباس.

والثاني: أن معناه: ادرسوا ما فيه، قاله الزجاج.

زاد المسير ١/ ٨٠]

التوراة من اللّه، وعندما عاد موسى بالتوراة والألواح قال بعضهم: إن في التكليف[١] الإيماني إصراً ـ أي شدة ـ ونحن لا نطيق هذا التكليف.

لقد تناسوا أن الذي يكلف هو الحق جلّ وعلا، ولا يمكن أن يُصدّق العقل أن الحق كلفهم ما لا يطيقون، إن الحق يقرر مبدءاً إيمانياً هو: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] أي: إنه لا يكلف نفساً إلا ما في وسعها من أن تكسب الخير بالعمل الصالح، أو تكتسب السيئات بالعمل غير الصالح. وإذا كان الحق قد وضع مبدأ العفو عن حال النسيان أو الخطأ، فهذا مبدأ إيماني متوافق مع قدرات البشر.. وإذا كان الحق قد شدّد على بني إسرائيل عقاباً لهم على تعنتهم مع موسى عليه السلام، فذلك التشدد نابع من إصرارهم على التعنت، لا قسوة من الحق عليهم.

وقد رفع اللّه جبل «الطور» فوق قوم موسى وجعله كالظلة فوقهم، وأمرهم أن يأخذوا بالتكاليف الإيمانية، وخضعوا خوفاً من سقوط الجبل فوقهم، واستقبلوا ما أمر به اللّه ساجدين خائفين. سجدوا بخوف دليلاً على قبول التكليف؛ لكنهم جعلوا سجودهم لا كالسجود؛ إنهم يسجدون على جهة من وجوههم ليروا الجبل المرفوع فوقهم أثناء سجودهم.

ولقد ظلت هذه المسألة باقية في سجود اليهود إلى اليوم.. إنه الخوف من أن يسقط الجبل عليهم، وقد ظل هذا المشهد بأثره الباقي في سلوكهم عندما يسجدون. وكأن الحق كان يريد أن يذكرهم برفع الجبل من فوقهم، إن وجودهم في ظل الجبل رحمة بهم، وإنه من رحمته أيضاً أن أمرهم باتباع المنهج الإيماني، ذلك أن حياة الإنسان دون منهج لا قيمة لها؛ بل إن سقوط الجبل فوق من لا منهج له أفضل من بقائه حياً.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢] [الأعراف: ١٧١].

---

(١) قال الزمخشري: ذلك أن موسى عليه السلام جاءهم بالألواح فرأوا ما فيها من الآصار والتكاليف الشاقة، فكبرت عليهم وأبوا قبولها، فأمر جبريل فقلع الطور من أصله، ورفعه وظلله فوقهم، وقال لهم موسى: إن قبلتم وإلا ألقي عليكم حتى قبلوا.

الكشاف [١/ ٧٣]

(٢) قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ هذه الآية تفسر معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾.

=

لقد خلع اللّه الجبل من الأرض وجعله كالغمام من فوقهم، ونزع الوتد يعني التحريك في حركة دائرية لخلخلة ما حوله، وجعل اللّه الجبل من فوقهم حتى ظنوا أن الجبل سوف يقع عليهم.. وهنا يأمرهم الحق بأن يأخذوا المنهج بقوة.. أي يطبقوا المنهج التكليفي باعتقاد قلبي لا تخاذل فيه.

والأخذ كما نفهم يستدعي من يعطي، والذي يعطي التكاليف هو اللّه، وهدف التكليف الإيماني حركة صلاح للكون. وعندما يأخذ الإنسان المنهج الإيماني باعتقاد يقيني لا تخاذل فيه، فمعنى ذلك أنه سوف يعطي أيضاً لحركة الحياة انسجامها. إن الحق عندما يأمر بني إسرائيل بأن يأخذوا المنهج بقوة ومواظبة، فذلك لينبه كل البشر أن منهج اللّه تعالى يجب أن يؤخذ بقوة، أي: بجد واجتهاد.

❁ ❁ ❁

= قال أبو عبيدة: المعنى زعزعناه فاستخرجناه من مكانه.
قال وكل شيء قلعته فرميت به فقد نتقته. وقيل: نتقناه رفعناه.
قال ابن الأعرابي: الناتق الرافع، والناتق الباسط، والناتق الفاتق، وامرأة ناتق ومنتاق: كثيرة الولد.
قال القتبي: أخذ ذلك من نتق السقاء، وهو نقضه حتى تقتلع الزبدة منه. قال: وقوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ قال: قُلع من أصله.
تفسير القرطبي [١/ ٤٣٦]

قصة البقرة..
ومعجزة إحياء الموتى

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ • قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ • قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ • قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ • قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ • وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ • فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧ ـ ٧٣].

تلك هي قصة البقرة كما وردت في القرآن الكريم.. جاء الأمر الإلٰهي بها إلى موسى، فأمر موسى عليه السلام قومه بأن يذبحوا بقرة امتثالاً لأمر الله تعالى، وظل قوم موسى مترددين في ذلك، إنهم يريدون علّة الأمر، وينسون أنها حكمة؛ إن أي أمر إلٰهي يجب أن لا يسأل الإنسان فيه عن علة؛ لأنه أمر من الخالق إلى المخلوق، وليس أمراً من مساوٍ للمخلوق. ولقد ذهب غير واحد من العلماء إلى القول بأن ذبح البقرة بالنسبة لقوم موسى، إنما كان من أجل رمز هيبة الحيوان أمام قدرة الإنسان؛ لأن الإنسان سيد مستخلف بأمر الحق في الكون، وكان قوم موسى قد صنعوا تمثالاً للعجل وعبدوه، وعاشوا مع المصريين في ذلك الزمن الذي قدسوا فيه البقر(١). وكان لا بد من اقتلاع هذه البقية من التقديس للعجل والأبقار

(١) قال الماوردي: وإنما أمروا ـ والله أعلم ـ بذبح بقرة دون غيرها؛ لأنها من جنس ما عبدوه من العجل، ليهوّن عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه، وليعلم بإجابتهم زوال ما كان في نفوسهم من عبادته.
النكت والعيون [١/ ١٣٧]
وقال القرطبي: وهذا المعنى علة في ذبح البقرة، وليس بعلّة في جواب السائل؛ ولكن المعنى فيه أن يحيا القتيل بقتل حي، فيكون أظهر لقدرته في اختراع الأشياء من أضدادها.
تفسير القرطبي [١/ ٤٤٥]

من نفوسهم؛ لذلك كان الجدل، والتلكؤ في ذبح البقرة، والسؤال عن نوعها.

لقد أراد الحق أن يكشف أمامهم قدرته على البقرة، وفوق كل ذلك قدرته على بعث الحياة، وذلك من خلال الجريمة التي وقعت بينهم.. ولقد قتل أحدهم قتيلاً، ولم يتعرف على القاتل، فجاء الأمر بذبح البقرة وضرب القتيل ببعضها؛ ليروا كيف يعود القتيل إلى الحياة ليخبرهم عن قاتله. لقد جاء الأمر أولاً، ثم جاءت العلة بعد ذلك(١).

إن التكليف من الله يجب أن يطبق على الفور؛ لأن تطبيق التكليف هو معيار الإيمان. ولنذكر جيداً أننا قلنا من قبل: إن أي أمر من الله لا يصح أن نسأل عن علته؛ لأن الإيمان بالله يقتضي أن نسلم بكل أمر علمنا علته أم لم نعلم.

إن المؤمن هو من يُقبِل على أوامر الله طائعاً راضياً مستسلماً لهذه الأوامر، وفي قصة البقرة ينبهنا الحق إلى هذه اللفتة، فلا تأتي العلة التي من أجلها صدر الأمر بذبح البقرة إلا في آخر القصة، كأن الحق قد أراد أن يختبر قوة إيمانهم دون لجاجة أو تلكؤ. وقصة البقرة تبين أنهم استقبلوا أمر ذبح البقرة باللجاجة والتلكؤ. فلقد ذكر القرآن الكريم تلك القصة ليبين لنا كيف كان تلكؤ قوم موسى، وكيف سردوا الأعذار ليسوِّفوا ويماطلوا في تنفيذ حكم الله.

لقد سمعوا أمر الله ولم يسارعوا إلى التنفيذ، وبعد ذلك وجهوا سؤالاً فيه

---

(١) قال القرطبي:
قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ مقدم في التلاوة، وقوله: ﴿قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ مقدم في المعنى على جميع ما ابتدأ به من شأن البقرة.
ويجوز أن يكون قوله: ﴿قَتَلْتُمْ﴾ في النزول مقدماً، والأمر بالذبح مؤخراً.
ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها، فكأن الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها، ثم وقع ما وقع من أمر القتل، فأمروا أن يضربوه ببعضها، ويكون ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ﴾ مقدماً في المعنى على القول الأول حسب ما ذكرنا، لأن الواو لا توجب الترتيب، ونظيره في التنزيل في قصة نوح بعد ذكر الطوفان وانقضائه في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، فذكر الركوب متأخراً في الخطاب ومعلوم أن ركوبهم كان قبل الهلاك.
وكذلك قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ وتقديره: أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً ومثله في القرآن كثير.
تفسير القرطبي [١/ ٤٤٥]

من الزلل الكثير: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾[١]؛ كأنهم لم يعترفوا بالله رباً لهم، ولكن قصروا ربوبية الحق على موسى وحده، ولو كان عندهم استحضار إيمان لقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾. لكن تلك المسألة الإيمانية كانت بعيدة عن تفكيرهم، ولذلك حمل إليهم موسى أمر الحق: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾.

كأن الحق يريد لهم الامتناع عن سُبُل التلكؤ، لكنهم يتمادون في التلكؤ، ويلفتهم قول الحق إلى خطأ السؤال، فكان المفروض أن يسألوا عن عمر البقرة.

لقد صحح لهم ما كان يجب أن يسألوا عنه، فقال الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾[٢].

والفارض في اللغة معناها: الواسع، والمراد ها ألا تكون بقرة مُسنّة، والذي يدل على ذلك أن وصف البقرة لم يتحدد فقط بأنه: ﴿لَّا فَارِضٌ﴾[٣] ولكن يتحدد

---

(١) قال أبو حيان: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ لما قال لهم موسى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، وعلموا أن ما أخبرهم به موسى من أمر الله إياهم بذبح البقرة كان عزيمة وطلباً، جاز ما قالوا له ذلك، وهذا القول أيضاً فيه تعنيت منهم وقلة طواعية، إذ لو امتثلوا فذبحوا بقرة، لكانوا قد أتوا بالمأمور، ولكن شدّدوا، فشدّد الله عليهم؛ قاله ابن عباس وأبو العالية وغيرهما.

البحر المحيط [١/ ٤٠٥]

(٢) قال القرطبي: في هذا دليل على جواز النسخ قبل وقت الفعل، لأنه لما أمر ببقرة، اقتضى أي بقرة كانت؛ فلما زاد في الصفة نسخ الحكم الأول بغيره؛ كما لو قال: في ثلاثين من الإبل بنت مخاض. ثم نسخه بابنة لبون أو حقة، وكذلك هاهنا لما عين الصفة صار ذلك نسخاً للحكم المتقدم.

تفسير القرطبي [١/ ٤٤٨]

(٣) والفارض: المسنة وقد فرضت تفرض فروضاً أي أسنت، ويقال للشيء القديم: فارض، قال الراجز:

شيب أصداغي فرأسي أبيض ... محامل فيها رجال فرض

يعني هرماء؛ وقال آخر:

لعمرك قد أعطيت جارك فارضاً ... تساق إليه ما تقوم على رجل

أي قديمة؛ وقال آخر:

يا رب ذي ضغن عليّ فارض ... له قُروء كقروء الحائض

أي قديم...

=

أيضاً ببقية الوصف: ﴿وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾[(١)] أي وسط بين ذلك الأمر وذاك الأمر. ويأتي بعد ذلك التحديد قوله تعالى: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾[(٢)] وذلك حتى لا يتمادوا في التلكؤ. وكان تحديد الحق للبقرة بذلك يعني ألا تكون مسنة، والبقرة المسنة كما نعرف هي التي تعرضت للحمل كثيراً؛ لذلك يكون بطنها متسعاً.

ويحدد الحق أن تكون البقرة غير بكر، أي أنها تكون قد ولدت عدة مرات،

= وقيل: الفارض: التي قد ولدت بطوناً كثيرة، فيتسع جوفها لذلك؛ لأن معنى الفارض في اللغة الواسع. قاله بعض المتأخرين.

تفسير القرطبي [١/ ٢٤٦]

(١) والبكر: الصغيرة التي لم تحمل. وحكى القتبي: أنها التي ولدت، والبكر: الأول من الأولاد؛ قال:

يا بكر بكرين ويا خلب الكبد ... أصبحت مني كذراع من عضد

والبكر أيضاً في إناث البهائم وبني آدم: ما لم يفتحله الفحل؛ وهي مكسورة الباء، وبفتحها: الفتى من الإبل.

والعوان: النصف التي قد ولدت بطناً أو بطنين، وهي أقوى ما تكون من البقر وأحسنه، بخلاف الخيل؛ قال الشاعر يصف فرساً:

كميت بهيم اللون ليس بفارض ... ولا بعوان ذات لون مخصف

فرس أخصف: إذا ارتفع البلق من بطنه إلى جنبه.

وقال مجاهد: العوان من البقر: هي التي قد ولدت مرة بعد مرة. وحكاه أهل اللغة.

ويقال: إن العوان النخلة الطويلة؛ وهي فيما زعموا لغة يمانية، وحرب عوان: إذا كان قبلها حرب بكر؛ قال زهير:

إذا لقحت حرب عوان مضرة ... ضروس تهر الناس أنيابها عضل

أي لا هي صغيرة ولا هي مسنة أي هي عوان.

تفسير القرطبي [١/ ٤٤٩]

(٢) قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ تجديد للأمر وتأكيد وتنبيه على ترك التعنت، فما تركوه، وهذا يدل على أن مقتضى الأمر الوجوب كما تقوله الفقهاء، وهو الصحيح على ما هو مذكور في أصول الفقه، وعلى أن الأمر على الفور؛ وهو مذهب أكثر الفقهاء أيضاً؛ ويدل على صحة ذلك أنه تعالى استقصرهم حين لم يبادروا إلى فعل ما أمروا به فقال: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾.

وقيل: لا، بل على التراخي؛ لأنه لم يعنفهم على التأخير والمراجعة في الخطاب. قاله ابن خويز منداد.

تفسير القرطبي [١/ ٤٤٩، ٤٥٠]

لكن لم تصبها الشيخوخة، وذلك هو المقصود بكلمة ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، ويأتي بعد ذلك الأمر بضرورة أن ينفذوا أمر الحق؛ لكنهم يتمادون في التلكؤ، فيتساءلون عن لونها(١). ويأتي الأمر من الحق على لسان موسى: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾(٢) والمقصود بذلك أن تكون بقرة تنال من رعاية صاحبها وكرمه والعناية اللازمة منه، فيبدو جلدها لامعاً فيه نضارة تسر من ينظر إليها، ويحدد الخالق لونها، فهي ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾(٣).

---

(١) قال القرطبي: واللون واحد الألوان، وهي هيئة كالسواد والبياض والحمرة.
واللون: النوع، وفلان متلوّن إذا كان لا يثبت على خُلق واحد وحال واحد.

تفسير القرطبي [١/ ٤٥٠]

(٢) قال ابن عباس: شديدة الصفرة، وقال قتادة: صافٍ، وقال الحسن: الصفراء: السوداء. والأول أصح لأنه لا يقال أسود فاقع إنما يقال: أصفر فاقع، وأسود حالك وأحمر قانئ، وأخضر ناضر، وأبيض ناصع للمبالغة، ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ إليها، يعجبهم حسنها وصفاء لونها.

معالم التنزيل [١/ ١٠٧، ١٠٨]

(٣) قال القرطبي: قوله: ﴿صَفْرَاءُ﴾ جمهور المفسرين أنها صفراء اللون من الصفرة المعروفة. قال مكي عن بعضهم: حتى القرن والظلف.
وقال الحسن وابن جبير: كانت صفراء القرن والظلف فقط.
وعن الحسن أيضاً: صفراء؛ معناه سوداء؛ قال الشاعر:

تلك خيلي منه وتلك ركابي هن صفر أولادها كالزبيب

قلت: والأول أصح لأنه الظاهر، وهذا شاذ لا يستعمل مجازاً إلا في الإبل، قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٣] وذلك أن السود من الإبل سوادها صفرة. ولو أراد السواد لما أكده بالفقوع، وذلك نعت مختص بالصفرة، وليس يوصف السواد بذلك؛ تقول العرب: أسود حالك وحُلْكُوك وحَلَكوك ودجوجي وغربيب، وأحمر قانئ، وأبيض ناصع ولَهِقٌ ولِهَاق ويَقِق، وأخضر ناضر، وأصفر فاقع، هكذا نص نقلة اللغة عن العرب.
قال الكسائي: يقال: فقع لونها يفقع فقوعاً إذا خلصت صفرته.
والإفقاع: سوء الحال. وفواقع الدهر: بوائقه، وفقّع بأصابعه إذا صوّت؛ ومنه حديث ابن عباس: نهى عن التفقيع في الصلاة. وهي الفرقعة، وهي غمز الأصابع حتى تُنقض.. ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ يريد: خالصاً لونها، لا لون فيها سوى لون جلدها ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾. قال وهب: كأن شعاع الشمس يخرج من جلدها، ولهذا قال ابن عباس: الصفرة تسر النفس... ومعنى تسر: تعجب.
=

ورغم ذلك الوصف الدقيق فقد عاد قوم موسى يسألون مرة ثالثة لمزيد من التلكؤ: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾[(١)] . كأنهم يربطون الهداية إلى أمر الله بحجة أخرى، فيرد الحق تبارك وتعالى بوصف ثالث: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾[(٢)] ، هكذا أخبر

= وقال أبو العالية: معناه في سمتها ومنظرها فهي ذات وصفين، والله أعلم.

تفسير القرطبي بتصرف [١/ ٤٥٠، ٤٥١]

﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: تعجب الناظرين بصفرتها، فتعجب بالسرور، وهو ما يتأثر به القلب، والفرح ما فرحت به العين[(١)] ، ويحتمل قوله: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ وجهين:

أحدهما: بحسن لونها فتكون.. لصفرتها.

والثاني: حسن سمتها، ووصفت بذلك، ليكون ذلك زيادة شرط في صفتها، غير ما تقدم من ذكر صفرتها، فتصير البقرة على الوجه الأول، ذات وصف واحد، وعلى الوجه الثاني، ذات وصفين.

النكت والعيون [١/ ١٤٠]

(١) قال القرطبي: وقيل: إنما قالوا: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ لأن وجوه البقر تتشابه؛ ومنه حديث حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ أنه ذكر: «فتناً كقطع الليل تأتي كوجوه البقر». يريد أنها يشبه بعضها بعضاً، ووجوه البقر تتشابه؛ ولذلك قالت بنو إسرائيل: إن البقر تشابه علينا.

تفسير القرطبي [١/ ٤٥٢]

قال الماوردي: قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ فسألوا سؤالاً ثالثاً، ولم يمتثلوا الأمر بعد البيان الثاني، فروى ابن جريج، عن قتادة، أن رسول الله ﷺ قال: «أمروا بأدنى بقرة، ولكنهم لما شددوا على أنفسهم شدد الله عليهم، وايم الله لو أنهم لم يستثنوا لما بُينت لهم آخر الأبد» يعني أنهم لو لم يقولوا: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ ما اهتدوا إليها أبداً.

النكت والعيون [١/ ١٤٠]

(٢) قال القرطبي: ومعنى لا ذلول: لم يذللها العمل؛ يقال: بقرة مذللة بينة الذِّل ـ بكسر الذال ـ، ورجل ذليل بيّن الذُّل ـ بضم الذال ـ، أي هي بقرة صعبة غير ريضة لم تذلل بالعمل. قوله تعالى: ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ «تثير» في موضع رفع على الصفة للبقرة، أي هي بقرة لا ذلول مثيرة. قال الحسن: وكانت تلك البقرة وحشية، ولهذا وصفها الله تعالى بأنها لا تثير الأرض. ولا تسقى الحرث: أي لا يُسنَى بها لسقي الزرع ولا يسقى عليها.

تفسير القرطبي [١/ ٤٥٢، ٤٥٣]

(١) هنا كلمة غير موجودة بالأصل ولاحظ أنه لم يذكر القول الثاني.

الحق قوم موسى بوصف جديد للبقرة المراد ذبحها. إنها بقرة غير منهكة بالعمل، فيجب ألا تكون من البقر المذلل للركوب، أو لحرث الأرض أو الدوران في السواقي.

إنها بقرة مُسلَّمة لاشية فيها؛ أي أن تكون سليمة لا شرخ في أذنها ولا إصابة في جسدها، وأن تكون في تمام السلامة. ذلك هو المقصود بكلمة ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾[١] أي لا عيب فيها. والمقصود بكلمة ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾[٢] أي أن يكون لونها خالياً من خلل لوني.. خالية من البقيع، سواء أكانت سوداء أو بيضاء، وكلمة ﴿لَّا شِيَةَ﴾ تأتي أيضاً من «الوشي المنمنم» أي الزينة المليئة بالزخارف. وكلمة ﴿لَّا شِيَةَ﴾ تعني أيضاً ألا تغيير يطرأ على الأصل[٣].

لقد شدد قوم موسى على أنفسهم فشدد الحق عليهم، لقد كان الأمر الصادر إليهم من الحق هو: اذبحوا بقرة. لكنهم تلكؤوا. وكان التلكؤ يتضمن أسئلة

---

(١) قال ابن الجوزي:

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ فيه أربعة أقوال:

أحدها: مسلمة من العيوب؛ قاله ابن عباس، وأبو العالية، وقتادة، ومقاتل.

والثاني: مسلمة من العمل؛ قاله الحسن وابن قتيبة.

والثالث: مسلمة من الشيَة؛ قاله مجاهد وابن زيد.

والرابع: مسلمة القوائم والخلْق؛ قاله عطاء الخراساني.

زاد المسير [١/ ١٨٤]

(٢) قال القرطبي: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: ليس فيها لون يخالف معظم لونها، هي صفراء كلها لا بياض فيها ولا حمرة ولا سواد؛ كما قال: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾.

وأصل شية: وشية، حذفت الواو كما حذفت من «يشي»، والأصل: يوشي، ونظيره الزنة والعدة والصلة.

والشية مأخوذة من: وشى الثوب إذا نسج على لونين مختلفين. وثور موشى: في وجهه وقوائمه سواد. قال ابن عرفة: الشية اللون. ولا يقال لمن نمّ: واشٍ، حتى يغير الكلام ويلونه فيجعله ضروباً ويزين منه ما شاء.

والوشي: الكثرة. ووشى بنو فلان: كثروا. ويقال: فرس أبلق، وكبش أخرج، وتيس أبرق، وغراب أبقع، وثور أشيه؛ كل ذلك بمعنى البلقة؛ هكذا نص أهل اللغة.

تفسير القرطبي [١/ ٤٥٤]

(٣) قال الزجاج: الوشي في اللغة: خلط لون بلون. ويقال: وشيت الثوب أشيه شية ووشياً، كقولك: وديت فلاناً أديه دية.

زاد المسير [١/ ٨٤]

للتسويف، وانقلب التسويف عليهم. لقد أصبح التسويف تشديداً في توصيف البقرة[(١)] . ويقر قوم موسى أخيراً بأمر اللّه. ويخضعون على مضض، وعلى غير كرم، وعلى غير إقبال، فقد قالوا: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[(٢)] ؛ هذا القول الذي جاء على لسانهم يؤكد أنهم لم يفعلوا أمر الحق إلا على مضض، إن اعترافهم بعد كل التلكؤ الذي انقلب إلى تشديد عليهم.. هذا الاعتراف المتأخر إنما هو دليل على عدم الإقبال الفوري بالإذعان لأمر اللّه. فهم لا يقبلون إقبال المحب على طاعة اللّه، متمثلة في اتباع أوامره. إن السرعة إلى تنفيذ أمر اللّه، هي دليل على حب من العبد لصاحب الأمر المطلق سبحانه وتعالى.

ثم يأتي التحديد الشديد للبقرة، حتى تنطبق الأوصاف على بقرة واحدة معينة. وكأن اللّه قد أراد بذلك أيضاً أن يرتفع ثمن تلك البقرة؛ فيكون صاحبها مستفيداً من ذلك التحديد، وأن يدفع المتلكئون ثمن تلكُّئهم، وكانت تلك المسألة هي مشيئة من الحق لخدمة قضية إيمانية أخرى، ويضرب اللّه لقوم موسى المثل الواضح. لقد كان هناك رجل صالح من بني إسرائيل[(٣)] يتحرى الدقة في كسبه، فلا

---

(١) قال القرطبي: وهذه الأوصاف في البقرة سببها أنهم شددوا فشدد اللّه عليهم، ودين اللّه يسر، والتعمق في سؤال الأنبياء وغيرهم من العلماء مذموم، نسأل اللّه العافية.

تفسير القرطبي [١/ ٤٥٤]

(٢) قال البغوي: قالوا: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي بالبيان التام الشافي الذي لا إشكال فيه، وطلبوها فلم يجدوا بكمال وصفها إلا مع الفتى، فاشتروها بملء مَسْكِها ذهباً.

معالم التنزيل [١/ ١٠٨]

قال الزمخشري: ﴿جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بحقيقة وصف البقرة وما بقي إشكال في أمرها، ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ أي فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلها فذبحوها، وقوله: ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ استثقال لاستقصائهم، واستبطاء لهم، وأنهم لتطويلهم المفرط، وكثرة استكشافهم ما كادوا يذبحونها، وما كادت تنتهي سؤالاتهم، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم.

وقيل: وما كادوا يذبحوها لغلاء ثمنها، وقيل: لخوف الفضيحة في ظهور القاتل.

الكشاف [١/ ٧٥]

(٣) قال القرطبي: وروي في قصص هذه البقرة روايات تلخيصها: أن رجلاً من بني إسرائيل ولد له ابن؛ وكانت له عجلة فأرسلها في غَيْضَة وقال: اللهم إني أستودعك هذه العجلة لهذا الصبي، ومات الرجل، فلما كبر الصبي قالت له أمه ـ وكان براً بها ـ: إن أباك استودع اللّه عجلة لك فاذهب فخذها؛ فذهب فلما رأته البقرة جاءت إليه حتى أخذ=

يرضى إلا بالحلال من الكسب، ولا يفعل إلا الحلال من السلوك، كان رجلاً يبتغي وجه الله في كل ما يفعل، وعندما حضرته الوفاة كانت ثروته هي بقرة صغيرة، وله ابن وزوجة.. هنا قال الرجل: اللهم إني أستودعك هذه. وكان دعاء الرجل يبغي به أن تكون البقرة الصغيرة وديعة عند الحق، وأن يكون عائدها كفيلاً برعاية الزوجة والابن.

إن الرجل المؤمن لم يأتمن واحداً من قومه، لذلك استودع ربّه ما يملك.. لم يجد أميناً إلا الله. وأطلق الرجل بقرته ترعى في المراعي، وقبل أن يموت الرجل المؤمن قال لزوجته: إني استودعت البقرة الصغيرة ربي الذي لا تضيع عنده الودائع وعندما سألته زوجته: أين البقرة..؟ قال لها: لقد أطلقتها في المراعي، ثم مات الرجل، وكبر ابن الرجل، فقالت له الأم: لقد ترك لك أبوك بقرة، واستودعها عند خالق الكون ومالكه؛ فقال الابن لأمه: وأين أجد البقرة لأستردها؟ قالت الأم: ألا تقول كأبيك، لقد قال والدك: لقد استودعت البقرة عند الله، فلتقل أنت: إني أتوكل على الله وأبحث عنها.

وسمع الابن كلام أمه وذهب إلى المراعي.. وسجد لله داعياً: اللهم رب إبراهيم ويعقوب، رد عليّ ما استودعك أبي. وإذ بالبقرة تأتي إليه طائعة، وكانت هذه البقرة تثير العجب من أمرها، كانت قادرة على أن ترد يد كل إنسان يقترب منها. هكذا أراد الله أن يوضح بالبقرة يقيناً إيمانياً جديداً. لقد استودعها الرجل المؤمن عند الله قبل أن يموت، وتوكل الابن على الله وسأله سبحانه أن يرد عليه وديعة أبيه، ورأى نفر من بني إسرائيل الابن وهو يقود البقرة بعد أن سمعوا المواصفات التي حددها الله في البقرة المراد ذبحها. وأراد هؤلاء القوم شراء البقرة من الابن، فقدموا له الدراهم.. رفض، وقدموا له الدنانير.. رفض. سألوه عن الثمن الذي يطلب. فأجاب الابن: لن أبيعها قبل أن أستشير أمي. وكان ذلك الابن

= بقرنيها ـ وكانت مستوحشة ـ فجعل يقودها نحو أمه. فلقيه بنو إسرائيل ووجدوا بقرة على الصفة التي أُمروا بها فساموه فاشتطّ عليهم، وكان قيمتها على ما رُوي عن عكرمة ثلاثة دنانير، فأتوا به موسى عليه السلام وقالوا: إن هذا اشتط علينا، فقال لهم: أرضوه في ملكه؛ فاشتروها منه بوزنها مرة؛ قال عبيدة: السدي: بوزنها عشر مرات. وقيل: بملء مسكها دنانير، وذكر مكي: أن هذه البقرة نزلت من السماء ولم تكن من بقر الأرض. فالله أعلم.

تفسير القرطبي [١/ ٤٥٤، ٤٥٥]

باراً بأمه. كان يقضي نهاره في الاحتطاب، أي جمع الحطب. وكان يقسم ثمن ما يجمعه من الحطب إلى ثلاثة أقسام: قسم يأكل منه، وقسم يعطيه لأمه لترعى أمورها به، وقسم ثالث يتصدق به. وكان هذا الفتى يقسم ليله إلى ثلاثة أقسام: ثلث يكون فيه خاضعاً لأوامر أمه راعياً لها ومنفذاً لطلباتها، وثلث يكون فيه عابداً للّه متبتلاً إلى خالقه، وثلث ينامه.

ذهب الابن البار إلى أمه يستشيرها في أمر بيع البقرة، وقال لها: لقد عرضوا ثمناً لها ثلاثة دنانير، فقالت الأم: هذا المبلغ لا يساويها، إنها تساوي أكثر.

عاد البعض من قوم موسى يعرضون على الابن البار ستة دنانير ثمناً لها، وعاد الابن البار يستشير أمه. قالت الأم: ما زال ذلك الثمن أقل من قيمة البقرة. وعاد قوم من بني إسرائيل يطلبون شراء البقرة باثني عشر ديناراً. لكن الابن رفض أن يبيع دون استشارة أمه. وقال لهم: واللّه لا أبيعها حتى لو كان وزنها ذهباً إلا بعد مشورة أمي. وأخيراً رضيت الأم أن يأخذوا البقرة بملء جلدها ذهباً.

هكذا بارك اللّه فيما استودعه العبد المؤمن. بارك اللّه في الابن.. فكان باراً بأمه، بارك اللّه في الزوجة فطلبت من الابن أن يتوكل على اللّه، وهو يبحث عن البقرة. بارك اللّه في البقرة ذاتها.. فجعلها قادرة أن ترد أي يد إلا يد صاحبها. وأخيراً.. بارك اللّه للابن في عمله الذي يرعى فيه حق اللّه، وحق الأمومة فيه، وحق نفسه. وفي ليله الذي قسمه بين رعاية الأم، وعبادة الحق، ورعاية جسده؛ بارك اللّه في كل ما ترك الرجل الصالح من بني إسرائيل.

وخلق اللّه الظرف المناسب من جميع نواحيه. فجعل تلكؤ بني إسرائيل فرصة لتحديد البقرة بذاتها، وجعل من إيمان العبد الصالح ووديعته فرصة ليلقن قوم موسى درساً إيمانياً في العقيدة. ودفع بنو إسرائيل ثمن البقرة ملء جلدها ذهباً، فقد كانوا يملكون من الذهب الكثير؛ بعضه ضاع في صناعة العجل الذي عبدوه بعد أن صنعه لهم السامري(١)، وبعضه صُرِف في ثمن البقرة التي حددها لهم الحق.

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ • وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٨، ١٤٩].

قال ابن كثير: يذكر تعالى ما كان من أمر بني إسرائيل حين ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه، فمكث على الطور يناجيه ربه، ويسأله موسى عليه السلام عن أشياء كثيرة، =

وجاء الأمر ليأخذوا جزءاً من البقرة ليضربوا به القتيل، الذي لم يتعرفوا على قاتله[1]، فتعود الحياة إلى القتيل لينطق باسم قاتله. وكان القتيل رجلاً له بعض من مال وغير متزوج، ولا وريث له إلا ابن عمه الذي حركه الطمع فتحركت شهوة الإرث عنده. واستدرج القتيلَ بعيداً عن تجمع بني إسرائيل، إلى مَحِلَّةٍ بعيدة تضم عدداً قليلاً منهم. وكان ابن العم القاتل يريد أن يلصق الجريمة بأهل المحلة ليرث القتيل، ويأخذ الدية أيضاً من أهل المحلة. ازدوج الطمع فعماه. وبالفعل بعد أن قتله، طالب الإرث والدِّيَة[2].

= وهو تعالى يجيبه عنها، فعمد رجل منهم يقال له: هارون السامري فأخذ ما كان استعاره من الحلي، فصاغ منه عجلاً وألقى فيه قبضة من التراب، كان أخذها من أثر فرس جبريل حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه، فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقي. ويقال: إنه استحال عجلاً جسداً أي لحماً ودماً حياً يخور.

قال قتادة وغيره: وقيل بل كانت الريح إذا دخلت من فمه فيخور كما تخور البقرة فيرقصون حوله ويفرحون.

البداية والنهاية [١/٢٦٨]

(١) قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ قال ابن الجوزي، وفي الذي ضُرب به ستة أقوال:

أحدها: أنه ضرب بالعظم الذي يلي الغضروف؛ رواه عكرمة عن ابن عباس.

والثاني: أنه ضرب بالفخذ؛ روي عن ابن عباس أيضاً، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وذكر عكرمة ومجاهد أنه الفخذ الأيمن.

والثالث: أنه البضعة التي بين الكتفين؛ رواه السدي عن أشياخه.

والرابع: أنه الذنب؛ رواه ليث عن مجاهد.

والخامس: أنه عجب الذنب، وهو عظم عليه بني البدن، روي عن سعيد بن جبير.

والسادس: أنه اللسان، قاله الضحاك.

زاد المسير [١/٨٦، ٨٧]

(٢) قال ابن الجوزي: روى ابن سيرين عن عبيدة قال: كان من بني إسرائيل رجل عقيم لا يولد له، وله مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله واحتمله ليلاً، فأتى به حياً آخرين، فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه حتى تسلحوا، وركب بعضهم إلى بعض، فأتوا موسى فذكروا له ذلك، فأمرهم بذبح البقرة.

وروى السدي عن أشياخه: أن رجلاً من بني إسرائيل كانت له بنت وابن أخ فقير، فخطب إليه ابنته، فأبى؛ فغضب وقال: والله لأقتلن عمي، ولآخذن ماله، ولأنكحن ابنته، ولآكلن ديته. فأتاه فقال: قد قام تجار في بعض أسباط بني إسرائيل، فانطلق معي فخذ لي من تجارتهم لعلي أصيب فيها، فخرج معه، فلما بلغا ذلك السبط، قتله الفتى، =

ولكن أهل المحلة نفوا أنهم قتلوا الرجل، وفي ذلك يقول الحق: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾(١). يدرء أي أن يدفع الإنسان بالشيء أو

= ثم رجع فلما أصبح، جاء كأنه يطلب عمه ولا يدري أين هو، فإذا ذلك السبط قد اجتمعوا عليه، فأمسكهم وقال: قتلتم عمي، وجعل يبكي وينادي: واعمّاه.

زاد المسير [١/ ٨٢]

قال القرطبي: وفي سبب قتله قولان:

أحدهما: لابنة له حسناء، أحب أن يتزوجها ابن عمها، فمنعه عمه، فقتله، وحمله من قريته إلى قرية أخرى؛ فألقاه هناك، وقيل: ألقاه بين قريتين.

الثاني: قتله طلباً لميراثه؛ فإنه كان فقيراً وادّعى قتله على بعض الأسباط قال عكرمة: كان لبني إسرائيل مسجد له اثنا عشر باباً، لكل باب قوم يدخلون منه؛ فوجدوا قتيلاً في سبط من الأسباط فادعى هؤلاء على هؤلاء، وادعى هؤلاء على هؤلاء، ثم أتوا موسى يختصمون إليه فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً...﴾ الآية.

تفسير القرطبي [١/ ٤٥٦]

وقال ابن كثير: قال ابن عباس وعبيدة السلماني وأبو العالية ومجاهد والسدي وغير واحد من السلف: كان رجل في بني إسرائيل كثير المال، وكان شيخاً كبيراً، وله بنو أخ وكانوا يتمنون موته ليرثوه، فعمد أحدهم فقتله في الليل وطرحه في مجمع الطرق، ويقال: على باب رجل منهم، فلما أصبح الناس اختصموا فيه، وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم، فقالوا: ما لكم تختصمون ولا تأتون نبي الله، فجاء ابن أخيه فشكى أمر عمه إلى موسى عليه السلام فقال موسى عليه السلام: أنشد الله رجلاً عنده علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به. فلم يكن عند أحد منهم علم منه، وسألوه أن يسأل في هذه القضية ربه عزّ وجلّ، فسأل ربه عزّ وجلّ في ذلك، فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾.

البداية والنهاية [١/ ٢٧٤]

(١) قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾. هذا الكلام مقدم على أول القصة، التقدير وإذ قتلتم نفساً فادّرأتم فيها؛ فقال موسى: إن الله يأمركم بكذا.

تفسير القرطبي [١/ ٤٥٥]

وقال البغوي: قال ابن عباس ومجاهد: معناه فاختلفتم، وقال الربيع بن أنس: تدافعتم، أي يحيل بعضكم على بعض من الدرء وهو الدفع، فكان كل واحد يدفع عن نفسه ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ﴾ أي مظهر ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فإن القاتل كان يكتم القتل.

معالم التنزيل [١/ ١٠٨]

قال ابن الجوزي: تقول: درأت فلاناً إذا دفعته، وداريته إذا لاينته، ودريته إذا ختلته، =

الاتهام بعيداً عنه. أخذ كل واحد منهم ينفي عن نفسه الاتهام بأنه القاتل ولم يكن أحد منهم يعرف القاتل، ولم يكن التشريع الذي نزل إلى موسى يتضمن الحكم في حالته تلك التي حدثت؛ ذلك أن التشريع لو كان يضم حالة من هذا اللون لسهل على موسى أن يحكم فيها. وكانت العادة في مثل هذه الحالة أن يجمع كبير القوم خمسين رجلاً من وُجهاء المكان الذي وقعت به الحادثة، ويقسمون بالله أنهم لا يعرفون من القاتل وأنهم لم يقتلوا الرجل. وكان أهل المحلة التي عثر على جثة القتيل بها يقلون عن الخمسين. وصار القرار أن يحلف أهل المحلة خمسين مرة على أنهم لم يقتلوا الرجل ولا يعرفون قاتله، وذلك حتى يتحمل بيت المال الدِّية (١).

لكن الله يريد بكل تلك التفاصيل هدفاً آخر، إنه سبحانه يلفت بني إسرائيل إلى الإيمان باليوم الآخر.

ذلك هو القصص القرآني. إن القصص القرآني لا يأتي ذكره لمجرد التسلية،

= فأدغمت التاء في الدال؛ لأنهما من مخرج واحد.

زاد المسير [١/ ١٨٦]

وفي قوله تعالى: ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الدرء الاعوجاج؛ ومنه قول الشاعر:

أمسكت عنهم درء الأعادي ... وداووا بالجنون من الجنون

يعني اعوجاج الأعادي.

والثاني: وهو المشهور، أن الدرء المدافعة، ومعناه أي تدافعتم في القتل، ومنه قول رؤبة بن العجاج:

أدركتها قدام كل مدره ... بالدفع عني درء كل منهجه

والثالث: معناه اختلفتم وتنازعتم، قاله السدي، وقيل: إن هذه الآية وإن كانت متأخرة في التلاوة، فهي متقدمة في الخطاب على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ الآية؛ لأنهم أمروا بذبحها، بعد قتلهم، واختلفوا في قاتله.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي: والله مظهر ما كنتم تسرون من القتل، فعند ذلك قال النبي ﷺ: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب، لأخرج الله عمله».

النكت والعيون [١/ ١٤٢، ١٤٣]

(١) قال البغوي: قال الكلبي: وذلك قبل نزول القسامة في التوراة.

معالم التنزيل [١/ ١٠٦]

ولكن تتبع منه العبر، واستنباط القوانين التي تحكم كل قضايا الحياة. إن الحق يأمر بأن يذبحوا بقرة، وأن يأخذوا جزءاً منها، ويضرب القوم بذلك الجزء من الحيوان الذي فارق الحياة ذلك القتيلَ الذي لا يعرفون قاتله. فتدب الحياة في القتيل ليرشد عن قاتله.

هكذا يلفت الحق سبحانه قوم موسى إلى القضية الأساسية التي يشكُّون فيها.. وهي اليوم الآخر، وقدرة الحق على البعث، وهكذا يتأكد قول الحق بأنه خالق الحياة والمُوجِد لها. إن جزءاً من بقرة مذبوحة يأمر الحق أن يضرب به رجلٌ قتيل فتدب فيه الحياة. إن المسألة ليست أسباب حياة. ولكنها قدرة قادر، يقول للشيء: ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾[1].

❁❁❁

(١) قال الماوردي، قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ يعني: أنه لما ضُرب القتيل ببعض البقرة؛ أحياه الله، وكان اسمه عاميل، فقال: قتلني ابن أخي، ثم قُبض، فقال بنو أخيه: والله ما قتلناه، فكذبوا بالحق بعد معاينته.

قال الفراء: وفي الكلام حذف، وتقديره: فقلنا اضربوه ببعضها؛ ليحيا، فضربوه، فحيي. ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ فدل بذلك على البعث والنشور، وجعل سبب إحيائه الضرب بميت لا حياة فيه؛ لئلا يلتبس على ذي شبهة، أن الحياة إنما انتقلت إليه مما ضُرب به، لتزول الشبهة، وتتأكد الحجة.

وفي قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ وجهان:

أحدهما: أنه حكاية عن قول موسى لقومه.

والثاني: أنه خطاب من الله لمشركي قريش.

﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: علامة قدرته.

والثاني: دلائل بعثكم بعد الموت.

﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: تعملون.

والثاني: تعتبرون.

النكت والعيون [١/ ١٤٠، ١٤٤]

المعجزة الربانية لاختيار طالوت ملكاً

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۞ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1] [البقرة: ٢٤٦، ٢٤٧].

من المعروف أن بعضاً من بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام قد خرجوا

---

(١) قال القرطبي: أي أجابكم إلى ما سألتم، وكان طالوت سقّاء. وقيل: دبّاغاً. وقيل: مُكَاريا؛ وكان عالماً؛ فلذلك رفعه الله على ما يأتي. وكان من سبط بنيامين، ولم يكن من سبط النبوة ولا من سبط الملك، وكانت النبوة في بني لاوى، والملك في سبط يهوذا؛ فلذلك أنكروا.

قال وهب بن منبّه: لما قال الملأ من بني إسرائيل لشمويل بن بال ما قالوا، سأل الله تعالى أن يبعث إليهم ملكاً ويدله عليه؛ فقال الله تعالى له: انظر إلى القَرَن [1] الذي فيه الدهن في بيتك، فإذا دخل عليك رجل فَنَشّ [2] الدهن الذي في القَرَن، فهو مَلِكُ بني إسرائيل فادهن رأسه منه وملّكه عليهم.

قال: وكان طالوت دباغاً، فخرج في ابتغاء دابة أضلها، فقصد شمويل عسى أن يدعو له في أمر الدابة أو يجد عنده فرجاً، فنش الدهن على ما زعموا، قال: فقام إليه شمويل فأخذه ودهن منه رأس طالوت، وقال له: أنت ملك بني إسرائيل الذي أمرني الله تعالى بتقديمه، ثم قال لبني إسرائيل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾.

تفسير القرطبي [٣/ ٢٤٥] =

---

(١) القَرَن: بالتحريك: الجعبة من الجلد تكون مشقوقة، ثم تخرز.

(٢) نَشّ: صوّت، أي: أحدث صوتاً.

من ديارهم حذر الموت، وسألوا نبياً أرسله اللّه لهم أن يجعل لهم مَلكاً حتى يستطيعوا أن يقاتلوا معه في سبيل اللّه للعودة إلى ديارهم وتحرير أبنائهم[(١)].

ولم يشأ النبي المرسل إليهم أن ينسب لنفسه أمر تعيين الملك الذي طلبوه ليقاتلوا تحت رايته، وإنما أراد نبيهم أن يرفع أمر اختيار هذا الملك إلى الخالق الأعظم سبحانه، وكأن النبي المبعوث لهم قد قال: إن كنتم قد فوضتموني في أن أبعث لكم مَلِكاً فاعلموا أن الذي يجتبي ويختار هو اللّه سبحانه وتعالى، وما أنا إلا نبي أنفذ أمر اللّه، وأبلغكم بمطلوبه سبحانه منكم، وذلك قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ ﴾، لكنهم استقبلوا أمر اختيار طالوت بنوع من الجدل الذي يَنُمُّ عن عدم فهم، واستنكروا ذلك قائلين: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾[(٢)].

= قال الماوردي: قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ ﴾ قال وهب، والسدي: إنما أنكروا أن يكون مَلِكاً عليهم، لأنه لم يكن من سبط النبوة، ولا من سبط المملكة؛ بل كان من أخمل سبط في بني إسرائيل.

﴿ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ ﴾ يعني زيادة في العلم وعِظَماً في الجسم. واختلفوا: هل كان ذلك فيه قبل الملك؟

فقال وهب بن منبه، والسدي: كان له ذلك قبل الملك، وقال ابن زيد: زيادة ذلك بعد الملك.

﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ وفي واسع ثلاثة أقاويل:

أحدها: واسع الفضل؛ فحذف ذكر الفضل اكتفاء بدليل اللفظ، كما يقال: فلان كبير، بمعنى كبير القدر.

الثاني: أنه بمعنى موسع النعمة على من يشاء من خلقه.

والثالث: أنه بمعنى ذو سعة.

النكت والعيون [١/ ٣١٤، ٣١٥].

(١) قال الماوردي: ﴿ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ ﴾ في سبب سؤالهم لذلك قولان:

أحدهما: أنهم سألوا ذلك لقتال العمالقة، وهو قول السدي.

والثاني: أن الجبابرة الذين كانوا في زمانهم استذلوهم، فسألوا قتالهم، وهو قول وهب والربيع.

النكت والعيون [١/ ٣١٤]

(٢) قال فخر الدين الرازي:

وقالوا: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ واستبعدوا جداً أن يكون هو ملكاً عليهم.

قال المفسرون: وسبب هذا الاستبعاد أن النبوة كانت مخصوصة بسبط معين من أسباط =

إذاً.. فقد أخذوا المسألة على أن طالوت ليس له حق الملك عليهم، فهو ليس من سبط المملكة ولا من سبط النبوة، فكيف يكون مَلكاً عليهم؟! اعترضوا على ذلك قائلين: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ ثم زادوا شيئاً آخر وهو: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾[1].

وهذا يدل على أن طالوت لم يكن من الشخصيات المشار إليها بالثراء أو الجاه. ونحن نعرف أن من عادة أي جماعة من الجماعات حين تفكر في اختيار من يقودها، أن تتجه العيون لاختيار شخص من الشخصيات اللامعة في الجماعة ثراءاً أو جاهاً.

وهذا الاعتراض من هؤلاء القوم، إنما يدلنا على أن طالوت كان من غمار القوم. واصطفاء الله لطالوت يعني أنه لا يوجد من بين هؤلاء القوم من يماثله للمهمة التي يجب أن يقوم بها.

وكان يجب أن يتلقوا الأمر باصطفاء الله لطالوت على أنه ترجيح كامل. بل لم يقف أمر الحق عند الاصطفاء؛ بل يوضح الحق أيضاً أنه قد زاد طالوت بسطة في العلم والجسم. إن الحق الأعلى سبحانه وتعالى يورد الأسباب التي تسد ذرائع هؤلاء القوم إلى اللجاجة والتلكؤ. لقد اصطفى الله طالوت ملكاً لهم.. وكان يكفي مجرد الاصطفاء من الله سبباً في أحقية طالوت بالمُلك. وأعطى الحق طالوت من المؤهلات ما ليس فيهم؛ لقد زاد الله طالوت في الجسم والعلم بسطة. ولنا أن نلاحظ مدى تلكؤ هؤلاء القوم ولجاجتهم.

= بني إسرائيل، وهو سبط لاوى بن يعقوب، ومنه موسى وهارون، وسبط المملكة، سبط يهوذا، ومنه داود وسليمان، وأن طالوت ما كان من أحد هذين السبطين، بل كان من ولد بنيامين، فلهذا السبب أنكروا كونه ملكاً لهم، وزعموا أنهم أحق بالملك منه، ثم إنهم أكدوا هذه الشبهة بشبهة أخرى، وهي قولهم: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ وذلك إشارة إلى أنه فقير.

واختلفوا: فقال وهب كان دباغاً، وقال السدي: كان مُكَارياً، وقال آخرون: كان سقاءً.

التفسير الكبير [٦/ ١٧٣]

(١) قال القرطبي: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ أي: كيف يملكنا ونحن أحق بالملك منه؟ جروا على سنتهم في تعنيتهم الأنبياء وحَيْدهم عن أمر الله فقالوا: ﴿أَنَّىٰ﴾ أي من أي جهة ـ فـ«أنى» في موضع نصب على الظرف ـ ونحن من سبط الملوك، وهو ليس كذلك، وهو فقير، فتركوا السبب الأقوى وهو قدر الله تعالى وقضاؤه السابق، حتى احتج عليهم نبيهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ﴾ أي اختاره، وهو الحجة القاطعة.

تفسير القرطبي [٣/ ٢٤٦]

وما دام الحال قد وصل إلى العناد عند استقبال أمر طالوت ملكاً، فإن الحق يأتي بالمعجزة التي تؤكد اختيار الله له ملكاً. والمعجزة أن هناك آية لملك طالوت. لقد كان من المفترض أن يستقبل هؤلاء القوم نبأ اختيار طالوت بأدب دون لجاجة؛ لأن الذي يحمل لهم نبأ الاختيار هو نبيهم الذي وثقوا به ولجؤوا إليه، لكنهم لم يستقبلوا الأمر بأدب؛ ورغم ذلك فأدب النبوة يرد على لجاجتهم بآية مرسلة من الحق سبحانه وتعالى.. إنها الآية الربانية التي تدل على صلاحية طالوت للمُلْك باختيار من الله. تلك الآية هي: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[1] [البقرة: ٢٤٨].

---

(١) ثم قال لهم على حجة التغبيط والتنبيه من غير سؤال منهم ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾، ويحتمل أن يكونوا سألوه الدلالة على صدقه في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾.

قال ابن عطية: والأول أظهر بمساق الآية، والثاني: أشبه بأخلاق بني إسرائيل...، وإليه ذهب الطبري.

تفسير القرطبي [٣/ ٢٤٧]

قال الماوردي: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ أي علامة ملكه ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ قال وهب بن منبه: كان قدر التابوت ثلاثة أذرع في ذراعين.

﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وفي السكينة ستة تأويلات:

أحدها: ريح هفافة لها وجه كوجه الإنسان، وهذا قول عليّ عليه السلام.

والثاني: أنها طست من ذهب من الجنة، كان يغسل فيه قلوب الأنبياء، وهذا قول ابن عباس والسدي.

والثالث: أنها روح من الله تعالى يتكلم، وهذا قول وهب بن منبه.

والرابع: أنها ما يعرف من الآيات فيسكنون إليها. وهذا قول عطاء بن أبي رباح.

والخامس: أنها الرحمة، وهو قول الربيع بن أنس.

والسادس: أنها الوقار، وهو قول قتادة.

النكت والعيون [١/ ٣١٥، ٣١٦]

قال ابن الجوزي: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ «الآية»: العلامة، فمعناه: علامة تمليك الله إياه: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ وهذا من مجاز الكلام؛ لأن التابوت يُؤتى به ولا يأتي، ومثله: «فإذا عزم الأمر» وإنما جاز مثل هذا، لزوال اللبس فيه، ورُوي عن ابن مسعود، وابن عباس: أنهم قالوا لنبيهم: إن كنت صادقاً؛ فأتنا بآية تدل على أنه ملك، فقال لهم ذلك.

زاد المسير [١/ ٢٥٨]=

ونأخذ من هذا القول الحكيم ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: أن التابوت كان غائباً ومفقوداً.

المسألة الثانية: أن التابوت كان أمره معروفاً لكل هؤلاء القوم.

المسألة الثالثة: أنهم كانوا في شغف للحصول على هذا التابوت.

ولنا أن نسأل: ما التابوت؟ وما أمره[1]؟ لقد ورد ذكر التابوت في آيات أخرى في القرآن، وأغلب الظن أنه نفس التابوت الذي أرسله اللّه علامة وآية لهؤلاء القوم.. إنه التابوت الذي جاء فيه قول الرحمن: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ • أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾[2] [طه: ٣٨، ٣٩].

= قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ أي إتيان التابوت، والتابوت كان من شأنه فيما ذكر أنه أنزله اللّه على آدم عليه السلام، فكان عنده إلى أن وصل إلى يعقوب عليه السلام، فكان في بني إسرائيل يغلبون به من قاتلهم حتى عصوا، فغُلبوا على التابوت، غلبهم عليه العمالقة: جالوت وأصحابه في قول السدي، وسلبوا التابوت منهم.

تفسير القرطبي [٣/ ٣٤٧]

(١) قال البغوي: وكانت قصة التابوت أن اللّه تعالى أنزل تابوتاً على آدم فيه صورة الأنبياء عليهم السلام، وكان من عود الشمشاذ، نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين، فكان عند آدم إلى أن مات، ثم بعد ذلك عند شيث ثم توارثها: أولاد آدم إلى أن بلغ إبراهيم، ثم كان عند إسماعيل لأنه كان أكبر ولده، ثم عند يعقوب، ثم كان في بني إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى، فكان موسى يضع فيه التوراة ومتاعاً من متاعه، فكان عنده إلى أن مات موسى عليه السلام، ثم تداولته أنبياء بني إسرائيل إلى وقت شمويل.

معالم التنزيل [١/ ٢٩٨، ٢٩٩]

(٢) قال القرطبي: قوله: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ قيل: ﴿أَوْحَيْنَآ﴾: ألهمنا.

وقيل: أُوحيَ إليها في النوم. وقال ابن عباس: أُوحيَ إليها كما أوحي إلى النبيين.

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ قال مقاتل: مؤمن آل فرعون هو الذي صنع التابوت ونجره، وكان اسمه حزقيل. وكان التابوت من جُمّيز ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي: اطرحيه في البحر: نهر النيل. ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ قال الفراء: ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أمر، وفيه معنى المجازاة. أي: اقذفيه، يلقه اليم. وكذا قوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ يعني فرعون. فاتخذت تابوتاً، وجعلت فيه نطعاً، ووضعت فيه موسى، وقيدت رأسه وخِصَاصه ـ يعني شقوقه ـ ثم ألقته في النيل، وكان يشرع منه نهر كبير في=

فالتابوت الذي جاء كآية لملك طالوت قد يكون هو التابوت الذي أوحى اللَّه إلى أم موسى أن تضع فيه ابنها، وتلقيه في اليم ليلقيه اليم إلى الساحل،

= دار فرعون، فساقه اللَّه في ذلك النهر إلى دار فرعون. وروي أنها جعلت في التابوت قطناً محلوجاً، فوضعته فيه وقيدته وجصصته، ثم ألقته في اليم. وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر كبير، فبينا هو جالس على رأس بركة مع آسية، إذا بالتابوت فأمر به فأخرج، ففتح فإذا صبيّ أصبح الناس فأحبه عدو اللَّه حباً شديداً لا يتمالك أن يصبر عنه.

وظاهر القرآن يدل على أن البحر ألقاه بساحله وهو شاطئه، فرأى فرعون التابوت بالساحل فأمر بأخذه. ويحتمل أن يكون إلقاء اليم بموضع من الساحل، فيه فوهة نهر فرعون، ثم أدّاه النهر إلى حيث البركة. واللَّه أعلم.

وقيل: وجدته جوارٍ لامرأة فرعون، فلما نظر إليه فرعون فرأى صبياً من أصبح الناس وجهاً، فأحبه فرعون؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾.

قال ابن عباس: أحبه اللَّه وحببه إلى خلقه. وقال ابن عطية. جعل عليه مسحة من جمال لا يكاد يصبر عنه من رآه.

وقال قتادة: كانت في عيني موسى ملاحة ما رآه أحد إلا أحبه وعشقه.

وقال عكرمة: المعنى جعلت فيك حسناً وملاحة فلا يراك أحد إلا أحبك.

وقال الطبري: المعنى: وألقيت عليك رحمتي.

وقال ابن زيد: جعلت من رآك أحبك، حتى أحبك فرعون فسلمت من شره، وأحبتك آسية بنت مزاحم فتبنتك.

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ قال ابن عباس: يريد أن ذلك بعيني حيث جُعلت في التابوت، وحيث أُلقيَ التابوت في البحر، وحيث التقطتك جواري امرأة فرعون؛ فأردن أن يفتحن التابوت لينظرن ما فيه، فقالت منهن واحدة: لا تفتحنه حتى تأتين به سيدتكن، فهو أحظى لكنّ عندها، وأجدر بألا تتهمكن بأنكن وجدتن فيه شيئاً فأخذتنه لأنفسكن. وكانت امرأة فرعون لا تشرب من ماء إلا ما استقينه أولئك الجواري. فذهبن بالتابوت إليها مغلقاً، فلما فتحته رأت صبياً لم يُرَ مثله قط؛ وأُلقيَ عليها محبته فأخذته فدخلت به على فرعون، فقالت له: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩] قال لها فرعون: أما لكِ فنعم، وأما لي فلا.

تفسير القرطبي [١١/ ١٩٥، ١٩٦]

وقيل: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ أي تُربَّى وتغذى على مرأى مني، قاله قتادة.

قال النحاس: معروف في اللغة؛ يقال: صنعت الفرس وأصنعته إذا أحسنت القيام به.

تفسير القرطبي [١١/ ١٩٧]

وقد قيل: إن هذا التابوت هو الصندوق الذي كانت به التوراة[١].

ثم إن الحق سبحانه يصف هذا التابوت بأنه: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[٢] [البقرة: ٢٤٨] قيل: إن السكينة لهؤلاء القوم مما يحمله هذا التابوت من آثار آل موسى وآل هارون.

إذاً... فهذا التابوت إنما جاء ذكره هنا ليدلنا على أنه كان مفقوداً من بني إسرائيل، وكان افتقاده إما بسبب عدو غلبهم، واستولى على المقدسات التي كانت في بلادهم[٣].

---

(١) قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتقوى، فالمعهود أن الله ينصر الحق والأمور الفاضلة عنده، والسكينة على هذا فعيلة، مأخوذة من السكون، كما يقال: عزم عزيمة. وقطع قطيعة.

المحرر الوجيز [١/ ٣٣٣]

(٢) قال ابن الجوزي في تأويل قوله تعالى: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ وفي البقية تسعة أقوال:

أحدها: أنها رضاض الألواح التي تكسرت حين ألقاها موسى وعصاه، قاله ابن عباس، وقتادة، والسدي.

والثاني: أنها: رضاض الألواح. قاله عكرمة، ولم يذكر العصا. وقيل: إنما اتخذ موسى التابوت ليجمع رضاض الألواح فيه.

والثالث: أنها: عصا موسى والسكينة، قاله وهب.

والرابع: عصا موسى، وعصا هارون، وثيابهما، ولوحان من التوراة، والمنّ، قاله أبو صالح.

والخامس: أن «البقية» العلم والتوراة، قاله مجاهد، وعطاء بن رباح.

والسادس: أنها: رضاض الألواح، وقفيز من مَنٍّ، في طست من ذهب، وعصا موسى وعمامته، قاله مقاتل.

والسابع: أنها: قفيز من مَنٍّ، ورضاض الألواح، حكاه سفيان الثوري عن بعض العلماء.

والثامن: أنها عصا موسى والنعلان. ذكره الثوري أيضاً عن بعض أهل العلم.

والتاسع: أن المراد بالبقية: الجهاد في سبيل الله، وبذلك أمروا، قاله الضحاك.

زاد المسير [١/ ٢٥٨، ٢٥٩]

(٣) قال البغوي: كان التابوت عند بني إسرائيل، وكانوا إذا اختلفوا في شيء تكلم وحكم=

وإما لتخاذلهم في أمر العناية به رغم ما به من مقدسات.

إن الحق سبحانه أعاد إليهم التابوت تحمله الملائكة [(١)].. هذا التابوت الذي تطمئن به قلوب بني إسرائيل وتملؤها السكينة، لما فيه من ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾. إنه الذي يذكّر بصلة السماء بالأرض عندما أرسل اللّه تعالى موسى عليه السلام لهم نبياً وبعث معه هارون ليشد من أزره؛ وكان لا بد لهم أن يحافظوا عليه؛ لكنهم لم يفعلوا.

ولنا في ذلك عبرة وعظة، فنحن مثلاً عندما نرى المصحف الذي كان يقرأ فيه الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي اللّه تعالى عنه، فإننا نتذكر أيام جمع المصحف الشريف من الصحاف.. إن هذا المصحف لا يختلف عن أي مصحف آخر من حيث الآيات أو الكلمات؛ ولكنه يثير في النفس الصلة الندية، ويجعلها تتذكر جهاد المسلمين الأوائل في الحفاظ على الكتاب الذي أنزله اللّه على رسوله ﷺ.

وعندما نرى السيف الذي كان يحارب به رابع الخلفاء الراشدين الإمام علي رضي اللّه تعالى عنه، ونعلم أن وزنه يفوق وزن عشرة سيوف، نتساءل أي قوة إيمانية كانت تُعين الإمام علياً رضي اللّه تعالى عنه ليحمل هذا السيف؟ عند ذلك نوقن أن الإيمان باللّه تعالى كان يعين المؤمن برسالة رسول اللّه ﷺ في أمور قد تشق على النفوس.

إن رؤية تلك الآثار تثير في النفس لوناً من السكينة والإشراق، لكن لا بد أن نبتعد في نظرتنا إلى هذه الآثار عن الوثنيات؛ فهذه الآثار لا تشفع لنا، إنما هي

= بينهم، وإذا حضروا القتال قدموه بين أيديهم فيستفتحون به على عدوهم، فلما عصوا وفسدوا سلط اللّه عليهم العمالقة فغلبوهم على التابوت.

معالم التنزيل [١/ ٢٩٩]

(١) ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: أي تسوقه، وقال ابن عباس رضي اللّه عنهما: جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض، وهم ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت، وقال الحسن: كان التابوت مع الملائكة في السماء، فلما ولي طالوت الملك حملته الملائكة ووضعته بينهم.

وقال قتادة: بل كان التابوت في التيه، خلّفه موسى عند يوشع بن نون فبقي هناك، فحملته الملائكة حتى وضعته في دار طالوت فأقروا بملكه.

معالم التنزيل [١/ ٣٠٠]

تذكرنا فقط بأمر يتصل بالنبي الكريم ﷺ وصحابته الكرام رضوان الله تعالى عليهم. هكذا يجب أن تكون النظرة إلى الآثار، وأن يكون الاعتناء بتلك الآثار للعظة والعبرة.

ويخبر الحق سبحانه وتعالى أن هذا التابوت يحمل آثاراً من بقية مما ترك آل موسى وآل هارون. وهذا يدل على أن آل موسى وآل هارون قد حافظوا على تلك الآثار.

وعندما يخبر الحق سبحانه وتعالى أن آية ملك طالوت هي مجيء التابوت محمولاً بواسطة الملائكة فهذا يعني أن أمر ذلك التابوت جليل للغاية.

كما أن صورة مجيئه تحرك الوجدان الديني، فعندما يأتي التابوت محمولاً بواسطة الملائكة، ونحن نعلم أن الملائكة هي خلق عظيم من خلق الله تعالى لها مقدرة عظيمة، ولا تستطيع العين البشرية رؤيتها على هيئها التي خلقها الله تعالى عليه إلا أن يشاء الله تعالى، فلنا أن نعرف أن التابوت قد جاء بصورة تنخلع لها القلوب (١).

والتابوت يحمل آثاراً ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ ﴾، فقد يكون بالتابوت بعض من صحاف التوراة، وقد يكون بالتابوت جزء من عصا موسى عليه السلام.. تلك العصا التي كانت معجزة من معجزات موسى عليه السلام. ولهذه العصا قصة كبرى مع موسى وقومه، ولا بد أن يكون قوم موسى قد احتفظوا بها ولم يهملوها.

إن الإنسان العادي يحتفظ بالشيء من تراث أبيه أو أجداده؛ بل إننا نجد أن المتاحف تقام للحفاظ على آثار الأمم، فلا أقل من أن يحتفظ قوم موسى بعصاه؛ التي كان لها شأن كبير، ومعجزة من معجزات موسى عليه السلام وسبق أن قلنا إن

---

(١) قال ابن الجوزي: وفي كيفية مجيء الملائكة به قولان:

أحدهما: أنها جاءت به بأنفسها، قال وهب: قالوا لنبيهم: اجعل لنا وقتاً يأتينا فيه.

فقال: الصبح، فلم يناموا ليلتهم. ووافت به الملائكة مع الفجر، فسمعوا حفيف الملائكة تحمله بين السماء والأرض.

والثاني: أن الملائكة جاءت به على عجلة وثورين، وذكر عن وهب أيضاً.

فعلى القول الأول: يكون معنى تحمله: تُقِلُّه. وعلى الثاني: يكون معنى حملها إياه: تسببها في حمله.

زاد المسير [١/ ٢٦٠]

ذلك يكون على سبيل العظة والاعتبار والتذكر والتأسي لا على سبيل التقديس.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨] قال بعض العلماء: إن هناك بقرتين بلا قائد قد جرتا التابوت إلى هؤلاء القوم.

وإذا كان ذلك كذلك أو غيره، فإن مجيء التابوت بأي وسيلة غير بشرية إنما هو دليل صدق الخبر القادم من الله تعالى ليكون سكينة لفؤاد المؤمنين منهم. فإن لم يؤمن بعضهم بأحقية طالوت للملك بعد هذه المعجزة، فعليه أن يراجع نفسه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1] [البقرة: ٢٤٨].

---

(١) قال ابن الجوزي: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: علامة تدل على تمليك طالوت.

قال المفسرون: فلما جاءهم التابوت وأقروا له بالملك، تأهب للخروج، فأسرعوا في طاعته، وخرجوا معه.

زاد المسير [١/ ٢٦٠]

قال البغوي: وكانت قصة التابوت، أن الذين سبوا التابوت أتوا به قرية من قرى فلسطين، يقال لها: «ازدود» وجعلوه في بيت صنم لهم، ووضعوه تحت الصنم الأعظم، فأصبحوا من الغد والصنم تحته، فأخذوه ووضعوه فوقه، وسمروا قدمي الصنم على التابوت، فأصبحوا وقد قطعت يدا الصنم ورجلاه، وأصبح ملقى تحت التابوت، وأصبحت أصنامهم منكسة فأخرجوه من بيت الصنم، ووضعوه في ناحية من مدينتهم، فأخذ أهل تلك الناحية وجع في أعناقهم حتى هلك أكثرهم، فقال بعضهم لبعض: أليس قد علمتم أن إله بني إسرائيل لا يقوم له شيء؟ فأخرجوه إلى قرية كذا. فبعث الله على أهل تلك القرية فأراً، فكانت الفأرة تبيت مع الرجل، فيصبح ميتاً قد أكلت ما في جوفه، فأخرجوه إلى الصحراء فدفنوه في مخرأة لهم، فكان كل من تبرز هناك أخذه الباسور والقولنج فتحيروا، فقالت لهم امرأة كانت عندهم من سبي بني إسرائيل من أولاد الأنبياء: لا تزالون ترون ما تكرهون، ما دام هذا التابوت فيكم، فأخرجوه عنكم. فأتوا بعجلة بإشارة تلك المرأة وحملوا عليها التابوت، ثم علقوها على ثورين وضربوا جنوبهما، فأقبل الثوران يسيران، ووكل الله تعالى بهما أربعة من الملائكة يسوقونهما، فأقبلا حتى وقفا على أرض بني إسرائيل، فكسرا نيريهما وقطعا حبالهما، ووضعا التابوت في أرض فيها حصاد بني إسرائيل، ورجعا إلى أرضهما فلم يرع بنو إسرائيل إلا بالتابوت، فكبروا وحمدوا الله.

=

وأقر القوم لطالوت بالملك عليهم، وبدأ يمارس المهمة التي جاء من أجلها؛ فأسرعوا في طاعته وخرجوا معه ليخوضوا حرباً ضد عدوهم الذي أخرجهم من الديار وأسر الأبناء.

= فذلك قوله تعالى: ﴿تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي تسوقه... ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً﴾ لعبرة ﴿لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

معالم التنزيل [١/ ٣٠٠] بتصرف

معجزة
داود عليه السلام

معجزة داود عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1] [سبأ: ١٠، ١١].

---

(١) يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام مما آتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العدَد والعددُ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات، الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته، ثم قال ﷺ: «لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود»[1] وقال أبو عثمان النهدي: ما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا وتر أحسن من صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، ومعنى قوله تعالى: ﴿أَوِّبِى﴾ أي سبحي، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد. وزعم أبو ميسرة أنه بمعنى سبحي بلسان الحبشة، وفي هذا نظر، فإن التأويب في اللغة هو الترجيع، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها، وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي في كتابه ـ «الجمل» ـ في باب النداء منه: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ أي سيري معه بالنهار كله والتأويب سير النهار كله. والسرى: سير الليل كله، وهذا لفظه، وهو غريب جداً لم أره لغيره، وإن كان له مساعدة من حيث اللفظ في اللغة؛ لكنه بعيد في معنى الآية ههنا، والصواب: أن المعنى في قوله تعالى: ﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ أي رجعي معه مسبحة كما تقدم، والله أعلم.
وقوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ قال الحسن البصري وقتادة والأعمش وغيرهم: كان لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ وهي الدروع، قال قتادة: وهو أول من عملها من الخلق وإنما كانت قبل ذلك صفائح. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا ابن سماعة، حدثنا ابن ضمرة عن ابن شوذب قال: كان داود عليه السلام يرفع في كل يوم =

---

(١) أخرجه البخاري [٥٠٤٨] ومسلم [٧٩٣/ ٢٣٦] من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه.

= درعاً فيبيعها بستة آلاف درهم، ألفين له ولآله وأربعة آلاف درهم يطعم بها بني إسرائيل خبز الحواري: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ هذا إرشاد من اللّٰه تعالى لنبيه داود عليه السلام، في تعليمه صنعة الدروع، قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ لا تدق المسمار فيقلقل في الحلقة، ولا تغلظه فيقصمها، واجعله بقدر، وقال الحكم بن عيينة: لا تغلظه فيقصم، ولا تدقه فيقلقل، وهكذا روي عن قتادة وغير واحد ـ وقال: علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: السرد: هو الحلق الحديد، وقال بعضهم: يقال درع مسرودة إذا كانت مسمورة الحلق، واستشهد بقول الشاعر:

وعليهما مسرودتان مضاهما داود أو صنع السوابغ تبع

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة داود عليه الصلاة والسلام؛ من طريق إسحاق بن بشر؛ وفيه كلام عن أبي إلياس عن وهب بن منبه ـ ما مضمونه: أن داود عليه السلام كان يخرج متنكراً فيسأل الركبان عنه وعن سيرته فلا يسأل أحداً إلا أثنى عليه خيراً في عبادته وسيرته وعدله عليه السلام، قال وهب: حتى بعث اللّٰه تعالى ملكاً في صورة رجل، فلقيه داود عليه الصلاة والسلام، فسأله كما كان يسأل غيره فقال: هو خير الناس لنفسه ولأمته، إلا أن فيه خصلة لو لم تكن فيه كان كاملاً. قال: ما هي؟ قال: يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين، يعني بيت المال، فعند ذلك نصب داود عليه السلام إلى ربه عزّ وجلّ في الدعاء أن يعلمه عملاً بيده، يستغني به ويغني به عياله، فألان اللّٰه عزّ وجلّ له الحديد، وعلّمه صنعة الدروع فعمل الدروع، وهو أول من عملها، فقال اللّٰه تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١] يعني مسامير الحلق، قال: وكان يعمل الدرع، فإذا ارتفع من عمله درع باعها، فتصدق بثلثها، واشترى بثلثها ما يكفيه وعياله، وأمسك الثلث يتصدق به يوماً بيوم إلى أن يعمل غيرها.

وقال: إن اللّٰه تعالى أعطى داود شيئاً لم يعطه غيره من حسن الصوت إنه كان إذا قرأ الزبور تجتمع الوحوش إليه، حتى يؤخذ بأعناقها وما تنفر، وما صنعت الشياطين والمزامير والبرابط والصنوج إلا على أصناف صوته عليه السلام، وكان شديد الاجتهاد، وكان إذا افتتح الزبور بالقراءة كأنما ينفخ في المزامير، وكان قد أُعطي سبعين مزماراً في حلقه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ أي في الذي أعطاكم اللّٰه تعالى من النعم ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: مراقب لكم بصير بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفى عليّ من ذلك شيء.

تفسير ابن كثير [٣/٥٠٥، ٥٠٦]

قال القرطبي: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ بيّن لمنكري نبوة محمد ﷺ أن إرسال الرسل ليس أمراً بِدعاً، بل أرسلنا الرسل وأيدناهم بالمعجزات، وأحللنا بمن خالفهم العقاب ﴿ءَاتَيْنَا﴾ أعطينا ﴿فَضْلًا﴾ أي أمراً فضلناه به على غيره.

واختلف في هذا الفضل على تسعة أقوال:

الأول: النبوة. =

= والثاني: الزبور.

الثالث: العلم؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ [النمل: ١٥].

الرابع: القوة؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧].

الخامس: تسخير الجبال والناس، قال الله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾.

السادس: التوبة؛ قال الله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾.

السابع: الحكم بالعدل؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

الثامن: إلانة الحديد: قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

التاسع: حسن، وكان داود عليه السلام ذا صوت حسن ووجه حسن وحسن الصوت هبة من الله تعالى وتفضل منه، وهو المراد بقوله تبارك وتعالى: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

وقال ﷺ لأبي موسى: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود».

تفسير القرطبي [١٤/ ٢٦٤، ٢٦٥]

قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ أي: وقلنا يا جبال أوّبي معه، أي سبحي معه؛ لأنه قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ قال أبو ميسرة: هو التسبيح بلسان الحبشة؛ ومعنى تسبيح الجبال هو أن الله تعالى خلق فيها تسبيحاً كما خلق الكلام في الشجرة، فيسمع منها ما يُسمع من المسبح معجزة لداود عليه الصلاة والسلام.

وقيل: المعنى سيرى معه حيث شاء، من التأويب الذي هو سير النهار أجمع وينزل الليل، قال ابن مقبل:

لحقنا بحيّ أوّبوا السير بعدما ... دفعنا شُعاع الشمس والطرف يجنح

وقرأ الحسن وقتادة وغيرهما ﴿أُوبِى مَعَهُۥ﴾ أي: ارجعي معه؛ من آب يؤوب إذا رجع أوْباً وأوبة وإياباً.

وقيل: المعنى تصرفي معه على ما يتصرف عليه داود بالنهار؛ فكان إذا قرأ الزبور صوتت الجبال معه، وأصغت إليه الطير، فكأنها فعلت ما فعل.

وقال وهب بن منبه: المعنى نوحي معه، والطير تساعده على ذلك، فكان إذا نادى بالنياحة أجابته الجبال بصداها، وعكفت الطير عليه من فوقه، فصدى الجبال الذي يسمعه الناس إنما كان من ذلك اليوم إلى هذه الساعة، فأيد بمساعدة الجبال والطير لئلا يجد فترة، فإذا دخلت الفترة اهتاج، أي ثار وتحرك وقوي بمساعدة الجبال والطير.

وكان قد أعطي من الصوت ما يتزاحم الوحوش من الجبال على حسن صوته، وكان الماء الجاري ينقطع عن الجري وقوفاً لصوته... =

لقد وهب الله داود عليه السلام فضل الحكمة والكتاب(١)، وأمر الحق الجبال بأن تردد التسبيح مع داود(٢)، فسخر له الطير(٣)، ووهبه الله القدرة على

= ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾. قال ابن عباس: صار عنده كالشمع.
وقال الحسن: كالعجين، فكان يعمله من غير نار.
وقال السدي: كان الحديد في يده كالطين المبلول والعجين والشمع، يصرفه كيف شاء، من غير إدخال نار ولا ضرب بمطرقة. وقال مقاتل. وكان يفرغ من الدرع في بعض اليوم أو بعض الليل، ثمنها ألف درهم، وقيل: أُعطي قوةً يثني بها الحديد.
تفسير القرطبي [١٤/ ٢٦٦]

(١) قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠].
قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ أي النبوة، قاله السدي. مجاهد: العدل، أبو العالية: العلم بكتاب الله تعالى. قتادة: السنة. شريح: العلم والفقه. ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾، قال أبو عبد الرحمن السلمي وقتادة: يعني الفصل في القضاء، وهو قول ابن مسعود والحسن والكلبي ومقاتل.
وقال ابن عباس: بيان الكلام. علي بن أبي طالب: هو البينة على المدعي واليمين على من أنكر. وقاله شريح والشعبي وقتادة أيضاً.
وقال أبو موسى الأشعري والشعبي أيضاً: هو قول أما بعد، وهو أول من تكلم بها.
وقيل: ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾، البيان الفاصل بين الحق والباطل.
وقيل: هو الإيجاز يجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل.
والمعنى في هذه الأقوال متقارب. وقول علي رضي الله عنه يجمعه؛ لأن مدار الحكم عليه في القضاء ما عدا قول أبي موسى.
تفسير القرطبي [١٥/ ١٦٢]

(٢) وفي موضع آخر قال الله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨].
قال القرطبي: ذكر تعالى ما آتاه من البرهان والمعجزة وهو تسبيح الجبال معه.
قال مقاتل: كان داود إذا ذكر الله جل وعز ذكرت الجبال معه، وكان يفقه تسبيح الجبال.
وقال ابن عباس: «يُسبحن» يصلين، وإنما يكون هذا معجزة إذا رآه الناس وعرفوه.
قال محمد بن إسحاق: أوتي داود من حسن الصوت ما يكون له في الجبال دويّ حسن، وما تصغي لحسنه الطير وتصوت معه، فهذا تسبيح الجبال والطير.
وقيل: سخرها الله عزّ وجلّ لتسير معه، فذلك تسبيحها؛ لأنها دالة على تنزيه الله عن شبه المخلوقين.
تفسير القرطبي [١٥/ ١٥٩]

(٣) وفي موضع آخر قال الله تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٩]. =

تشكيل الحديد كيفما شاء. قد ألان اللَّه له الحديد، حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة، وكان يصنع منه دروعاً ذات نسيج يتيح لمن يرتديها الحماية وهو يقاتل(١).

لقد أتقن داود عليه السلام صناعة الدروع، لأنها كانت البداية في رفعة شأنه. فلقد كان داود أخاً لسبعة من الإخوة هو أصغرهم.

وقال النبي المرسل إليهم: إن الذي سوف يحارب ويدخل المعركة ضد جالوت، لا بد أن يكون درع موسى عليه السلام على مقاسه. وقد حاول كل واحد من إخوته أن يرتدي درع موسى عليه السلام فلم يناسب الدرع إلا داود. ودخل داود المعركة ضد جالوت بهذه الدرع فقتل جالوت وكان كبير قومه(٢).

= قال ابن عباس: كان داود عليه السلام إذا سبح جاوبته الجبال، واجتمعت إليه الطير فسبحت معه. فاجتماعها إليه حشرها، فالمعنى وسخرنا الطير مجموعة إليه لتسبح اللَّه معه.

وقيل: أي: وسخرنا الريح لتحشر الطيور إليه لتسبح معه، أو أمرنا الملائكة تحشر الطيور... ﴿كُلٌّ لَّهُۥ﴾ أي: لداود ﴿أَوَّابٌ﴾ أي: مطيع، أي: تأتيه وتسبح معه، وقيل: الهاء للَّه عزّ وجلّ.

تفسير القرطبي [١٥/ ١٦١]

(١) قال ابن كثير: قال الحسن البصري وقتادة والأعمش وغيرهم: كان لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط.

تفسير ابن كثير [٣/ ٥٠٥]

(٢) قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: فأنزل اللَّه عليهم النصر، ﴿فَهَزَمُوهُم﴾: فكسروهم، والهزم: الكسر، ومنه سقاء مُتَهَزِّم، أي انثنى بعضه على بعض مع الجفاف، ومنه ما قيل في زمزم: إنها هزمة جبريل، أي: هزمها برجله فخرج الماء. والهزم: ما تكسر من يابس الحطب.

قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ وذلك أن طالوت الملك اختاره من بين قومه لقتال جالوت، وكان رجلاً قصيراً مسقاماً مصفاراً أصغر أزرق، وكان جالوت من أشد الناس وأقواهم، وكان يهزم الجيوش وحده، وكان قتل جالوت وهو رأس العمالقة على يده وهو داود ابن إيشي(١) ـ بكسر الهمزة، ويقال: داود بن زكريا بن رشوى، وكان من سبط يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام وكان من أهل بيت المقدس، جمع له بين النبوّة والملك بعد أن كان راعياً، وكان أصغر إخوته، وكان يرعى غنماً، =

---

(١) كذا في الأصول والذي في البحر وغيره إيشا.

لقد كانت هذه هي بداية فتح الحق سبحانه وتعالى على داود، أن آتاه اللّٰه الملك والحكمة.

= وكان له سبعة إخوة في أصحاب طالوت؛ فلما حضرت الحرب قال في نفسه: لأذهبن إلى رؤية هذه الحرب، فلما نهض في طريقه مر بحجر فناداه: يا داود خذني فبي تقتل جالوت، ثم ناداه حجر آخر، ثم ناداه حجر آخر، ثم آخر، فأخذها وجعلها في مخلاته وسار، فخرج جالوت يطلب مبارزاً فَكَعَّ[(١)] الناس عنه حتى قال طالوت: من يبرز إليه ويقتله فأنا أزوجه ابنتي وأحكمه في مالي. فجاء داود عليه السلام فقال: أنا أبرز إليه وأقتله، فازدراه طالوت حين رآه لصغر سنه وقصره فردّه، وكان داود أزرق قصيراً، ثم نادى ثانية وثالثة فخرج داود، فقال طالوت له: هل جربت نفسك بشيء؟ قال: نعم؛ قال: بماذا؟ قال: وقع ذئب في غنمي فضربته ثم أخذت رأسه فقطعته من جسده، قال طالوت: الذئب ضعيف، هل جربت نفسك في غيره؟ قال: نعم، دخل الأسد في غنمي فضربته ثم أخذت بلحييه فشققتهما، أفترى هذا أشد من الأسد؟ قال: لا وكان عند طالوت درع لا تستوي إلا على من يقتل جالوت، فأخبره بها وألقاها عليه فاستوت؛ فقال طالوت: فاركب فرسي وخذ سلاحي ففعل؛ فلما مشى قليلاً رجع فقال الناس: جَبُنَ الفتى! فقال داود: إن اللّٰه إن لم يقتله لي ويُعِنّي عليه لم ينفعني هذا الفرس ولا هذا السلاح، ولكني أحب أن أقاتله على عادتي، قال: وكان داود من أرمى الناس بالمقلاع، فنزل وأخذ مخلاته فتقلدها، وأخذ مقلاعه وخرج إلى جالوت، وهو شاكٍ في سلاحه، على رأسه بيضة فيها ثلاثمائة رطل؛ فيما ذكر الماوردي وغيره.

فقال له جالوت: أنت يا فتى تخرج إلي! قال: نعم؛ قال: هكذا كما تخرج إلى الكلب! قال: نعم، وأنت أهون. قال: لأطعمن لحمك اليوم للطير والسباع. ثم تدانيا وقصد جالوت أن يأخذ داود بيده استخفافاً به؛ فأدخل داود يده إلى الحجارة، فرُوي أنها التأمت فصارت حجراً واحداً، فأخذه فوضعه في المقلاع وسمى اللّٰه وأداره ورماه فأصاب به رأس جالوت فقتله، وحز رأسه وجعله في مخلاته، واختلط الناس، وحمل أصحاب طالوت فكانت الهزيمة.

وقد قيل: إنما أصاب بالحجر من البيضة موضع أنفه، وقيل: عينه وخرج من قفاه، وأصاب جماعة من عسكره فقتلهم. وقيل: إن الحجر تفتت حتى أصاب كل من في العسكر شيء منه؛ وكان كالقبضة التي رمى بها النبي ﷺ هوازن يوم حنين، واللّٰه أعلم. وقد أكثر الناس في قصص هذه الآي، وقد ذكرت لك منها المقصود واللّٰه المحمود.

قلت: وفي قول طالوت: «من يبرز له ويقتله فإني أزوجه ابنتي وأحكمه في مالي» معناه ثابت في شرعنا، وهو أن يقول الإمام: من جاء برأس فله كذا، أو أسير فله كذا، على =

---

(١) كع: جبن وضعف.

ولقد أفاض اللّه على داود عليه السلام فن صناعة الدروع من الحديد المشغول، حتى يرتديه المقاتلون فيحميهم أثناء القتال. ويقول الحق سبحانه وتعالى في ذلك الأمر: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾[1] [الأنبياء: ٨٠].

= ما يأتي بيانه في «الأنفال»[1] إن شاء اللّه تعالى. وفيه دليل على أن المبارزة لا تكون إلا بإذن الإمام؛ كما يقوله أحمد وإسحاق وغيرهما. واختلف فيه عن الأوزاعي، فحكى عنه أنه قال: لا يحمل أحد إلا بإذن إمامه. وحُكي عنه: أنه قال: لا بأس به فإن نهى الإمام عن البراز فلا يبارز أحد إلا بإذنه. وأباحت طائفة البرّاز ولم تذكر بإذن الإمام ولا بغير إذنه؛ هذا قول مالك.

سئل مالك عن الرجل يقول بين الصفين: من يبارز؟ فقال: ذلك إلى نيته، إن كان يريد بذلك اللّه فأرجو ألا يكون به بأس، قد كان يُفعل ذلك فيما مضى. وقال الشافعي: لا بأس بالمبارزة. قال ابن المنذر: المبارزة بإذن الإمام حسن، وليس على من بارز بغير إذن الإمام حرج، وليس ذلك بمكروه؛ لأني لا أعلم خبراً يمنع منه. ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ قال السدي: أتاه اللّه ملك طالوت ونبوّة شمعون. والذي علمه هو صنعة الدروع ومنطق الطير، وغير ذلك من أنواع ما علمه ﷺ. وقال ابن عباس: هو أن اللّه أعطاه سلسلة موصولة بالمجرّة والفلك، ورأسها عند صومعة داود؛ فكان لا يحدث في الهواء حدث إلا صلصلت السلسلة فيعلم داود ما حدث، ولا يمسها ذو عاهة إلا برئ؛ وكانت علامة دخول قومه في الدين أن يمسوها بأيديهم، ثم يمسحون أكفهم على صدورهم، وكانوا يتحاكمون إليها بعد داود عليه السلام إلى أن رفعت.

تفسير القرطبي [٣/٢٥٦ ـ ٢٥٨]

(١) قال القرطبي: فيه ثلاث مسائل: الأولى ـ قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ يعني: اتخاذ الدروع بإلانة الحديد له. واللبوس عند العرب السلاح كله؛ درعاً كان أو جوشناً أو سيفاً أو رمحاً. قال الهذلي[2] يصف رمحاً:

وَمَعِي لَبُوسٌ لِلبَئِيسِ كأنه ... رَوْقٌ بجَبْهَةِ ذِي نِعاجٍ مُجْفِلِ

واللبوس كل ما يلبس، وأنشد ابن السكيت[3]:

ألبس لكل حالة لبوسها ... إما نعيمها وإما بوسها =

(١) راجع تفسير القرطبي [جـ٧/ ٣٦٣].

(٢) هو أبو كبير الهذلي وأسمع عامر بن الحليس من قصيدة أولها:

أزهير هل على شيبةٍ من معدل ... أم لا سبيل إلى الشباب الأول

والبئيس: الشجاع، والروق: القرن، وذو نعاج: يعني ثور، والنعاج: البقر من الوحش.

(٣) البيت لبيهس الفزاري.

= وأراد الله تعالى هنا الدرع، وهو بمعنى الملبوس، نحو الركوب والحلوب. قال قتادة: أول من صنع الدروع داود، وإنما كانت صفائح، فهو أول من سردها وحلقها.

الثانية ـ قوله تعالى: «ليحصنكم»[١] ليحرزكم، ﴿مِّنۢ بَأۡسِكُمۡ﴾ أي من حربكم. وقيل: من السيف والسهم والرمح، أي من آلة بأسكم فحذف المضاف.

ابن عباس: ﴿مِّنۢ بَأۡسِكُمۡ﴾ من سلاحكم. الضحاك: من حرب أعدائكم، والمعنى واحد.

تفسير القرطبي [١١/ ٣٢٠]

(١) «ليحصنكم» بالياء قراءة نافع.

معجزات
العُزير عليه السلام

معجزات العُزير عليه السلام

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(١) [البقرة: ٢٥٩].

---

(١) قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ قال الزجاج: هذا معطوف على معنى الكلام الذي قبله، أرأيت كالذي حاج إبراهيم، أو كالذي مر على قرية؟ وفي المراد بالقرية قولان:

أحدهما: أنها بيت المقدس لما خربه بختنصر، قاله وهب، وقتادة، والربيع بن أنس.

والثاني: أنها التي خرج منها الألوف حذر الموت، قاله ابن زيد. وفي الذي مر عليها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه عزير، قاله علي بن أبي طالب، وأبو العالية، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وناجية بن كعب، وقتادة، والضحاك، والسدي، ومقاتل.

والثاني: أنه أرمياء، قاله وهب، ومجاهد، وعبد الله بن عبيد بن عمير.

والثالث: أن رجل كافر شك في البعث، نقل عن مجاهد أيضاً. والخاوية: الخالية، قاله الزجاج. وقال ابن قتيبة: الخاوية الخراب، والعروش: السقوف، وأصل ذلك أن تسقط السقوف، ثم تسقط الحيطان عليها.

﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ﴾ أي: كيف يحييها؟ فإن قلنا: إن هذا الرجل نبي، فهو كلام من يؤثر أن يرى كيفية الإعادة، أو يستهولها، فيعظم قدرة الله، وإن قلنا: إنه كان رجلاً كافراً، فهو كلام شاك، والأول أصح.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾.

روى ناجية بن كعب عن علي عليه السلام قال: خرج عزير نبي الله من مدينته، وهو رجل شاب، فمر على قرية وهي خاوية على عروشها، فقال: أنى يحيي هذه الله بعد موتها، فأماته الله مائة عام، ثم بعثه، وأول ما خلق الله منه عيناه، فجعل ينظر إلى عظامه تنضم بعضها إلى بعض، ثم كسيت لحماً، ونفخ فيها الروح. قال الحسن: قبضه الله أول النهار، وبعثه الله آخر النهار بعد مائة سنة. قال مقاتل: ونودي من السماء: كم=

عندما ننظر إلى الآية نجدها تبدأ بـ﴿أَوْ﴾ أي أنها معطوفة على ما قبلها، فكأن الحق يريد أن يقول لنا: ألم تر إلى مثل الذي مر على قرية.

ونحن أيضاً عندما نسمع كلمة ﴿قَرْيَةٍ﴾ فإنها تفيد تجمع جماعة من الناس(١).

ونفهم أن الذي مر على هذه القرية ليس من سكانها، إنما هو قد مر عليها عابر سبيل.

= لبثت؟ قال قتادة: فقال: لبثت يوماً، ثم نظر فرأى بقية من الشمس، فقال: أو بعض يوم. فهذا يدل على أنه عزير.

وقال وهب بن منبه: أقام أرميا بأرض مصر، فأوحى الله إليه أن الحق بأرض إيلياء، فركب حماره، وأخذ معه سلة من عنب وتين، ومعه سقاء جديد فيه ماء، فلما بدا له شخص بيت المقدس وما حوله من القرى نظر إلى خراب لا يوصف، فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟ ثم نزل منها منزلاً، وربط حماره، وألقى الله عليه النوم، ونزع روحه مائة عام، فلما مر منها سبعون عاماً، أرسل الله ملكاً إلى ملك من ملوك فارس عظيم، فقال: إن الله يأمرك أن تنفر بقومك، فتعمر بيت المقدس وإيلياء وأرضها حتى تعود أعمر ما كانت، فندب ثلاثمائة قهرمان، ودفع إلى كل قهرمان ألف عامل، وما يصلحه من أداة العمل، فلما وقعوا في العمل؛ رد الله روح الحياة في عيني أرميا، وآخر جسده ميت، فنظر إليها تعمر، فلما تمت بعد ثلاثين سنة؛ رد الله إليه الروح، فنظر إلى طعامه وشرابه فلم يتسنه، وزعم مقاتل أن هذه القصة كانت بعد رفع عيسى عليه السلام.

زاد المسير [١/ ٢٦٩، ٢٧٠]

وقال القرطبي: «أو» للعطف حملاً على المعنى، والتقدير عند الكسائي والفراء: هل رأيت كالذي حاج إبراهيم في ربه، أو كالذي مر على قرية.

وقال المبرد: المعنى ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه، ألم تر من هو كالذي مر على قرية. فأضمر في الكلام (من هو).

تفسير القرطبي [٣/ ٢٨٨]

وقال ابن عطية: عطفت «أو» في هذه الآية على المعنى؛ لأن مقصد التعجيب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ﴾ يقتضي أن المعنى أرأيت كالذي حاج، ثم جاء قوله: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى﴾ عطفاً على ذلك المعنى.

المحرر الوجيز [١/ ٣٢٧]

(١) وسميت القرية قرية لاجتماع الناس فيها؛ من قولهم: قَرَيت الماء أي جمعته.

تفسير القرطبي [٣/ ٢٨٨]

ونلحظ كذلك أن الحق سبحانه لم يشأ أن يأتي لنا باسم القرية(١)، أو باسم الذي مر عليها، قال البعض: إنه أرميا، وقال آخرون إنه الخضر، وقال غيرهم إنه عزير(٢).

إن التشخيص لا يعنينا لأن الحق حين يبهم التشخيص فذلك لأمر يريده، وهو الخالق الأكرم الأعلم.

والآية هنا في مجال عرض لقدرة الخالق سبحانه لتكون عظة وعبرة لكل من يشك في البعث واليوم الآخر.

ونلحظ أن الحق قد وصف القرية بأنها: ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ وعندما يقول إنسان «إني خويان» فمعنى ذلك أنه جائع؛ لأن بطنه خال من الطعام. والقرية الخاوية على عروشها أي: الخالية من السكان، وقد تكون أبنيتها موجودة ومهدمة؛ أو إنها أبنية بلا عروش؛ أي أبنية خربة(٣). والعرش حين يكون على البيت فالمقصود به الفسطاط المصنوع مما تصنع منه السقوف، فكأن العروش قد سقطت أولاً على الأرض، ثم سقطت الجدران عليها(٤).

---

(١) قال الماوردي: واختلفوا في القرية على قولين:
أحدهما: هي بيت المقدس لما خربه بختنصر، وهذا قول وهب وقتادة والربيع بن أنس.
والثاني: أنها التي خرج منها الألوف حذر الموت قاله ابن زيد.

النكت والعيون [١/ ٣٣١]

(٢) قال الماوردي: اختلفوا في الذي مر على قرية على ثلاثة أقاويل:
أحدها: أنه عزير، قاله قتادة.
والثاني: إنه إرمياء وهو قول وهب.
والثالث: أنه الخضر، وهو قول ابن إسحاق.

النكت والعيون [١/ ٣٣١]

(٣) ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ في الخاوية قولان:
أحدهما: الخراب، وهو قول ابن عباس، والربيع، والضحاك.
والثاني: الخالية.
وأصل الخواء: الخلو، يقال: خوت الدار إذا خلت من أهلها، والخواء الجوع؛ لخلو البطن من الغذاء و﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ على أبنيتها، والعرش: البناء.

النكتب والعيون [١/ ٣٣١]

(٤) والعريش: سقف البيت. وكل ما يتهيأ ليظل أو يكن فهو عريش، ومنه عريش الدالية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾. =

والذي مر على هذه القرية قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[١] فكأنه يسأل عن حياة الناس الذين هم أهل القرية.

فالقرية لا حياة لها بدون أهل، إن القرية تكون خربة بدون أناس يسكنونها.

والقرآن الكريم حين يذكر القرية في بعض الأحيان فهو يريد أهلها واقرأ قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾[٢] [يوسف: ٨٢].

إن أبناء يعقوب عليه السلام عادوا من مصر وتركوا أخاهم الأصغر مع يوسف عليه السلام، قالوا لأبيهم: أرسل من يأتيك بشهادة أهل مصر، واسأل بنفسك من كانوا معنا في القافلة أننا تركنا أخانا بمصر.

إذاً.. فسؤال الذي مر على القرية الخاوية على عروشها هو سؤال عن أهلها.

إنها قرية خربة، وهكذا تفهم أن العمار في أي مكان من لوازم الكائن الحي وهو الإنسان، والقرية الخاوية على عروشها هي قرية بلا سكان.

= قال السدي: يقول: هي ساقطة على سقفها، أي سقطت السُقُف، ثم سقطت الحيطان عليها؛ واختاره الطبري.

وقال غير السدي: معناه: خاوية من الناس، والبيوت قائمة وخاوية معناها: خالية.

تفسير القرطبي [٣/ ٢٩٠]

(١) قال القرطبي: «وفي الحديث الطويل حين أحدثت بنو إسرائيل الأحداث؛ وقف إرمياء أو عزير على القرية، وهي كالتل العظيم وسط بيت المقدس؛ لأن بختنصر أمر جنده بنقل التراب إليه حتى جعله كالجبل، ورأى أرميا البيوت قد سقطت حيطانها على سُقُفها فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

تفسير القرطبي [٣/ ٢٩٠]

(٢) قال القرطبي: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي أهلها؛ فحذف؛ ويريدون بالقرية مصر وقيل: قرية من قراها، نزلوا بها وامتاروا منها.

وقيل: المعنى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ وإن كانت جماداً، فأنت نبي الله، وهو يُنطق الجماد لك؛ وعلى هذا فلا حاجة إلى إضمار.

قال سيبويه: ولا يجوز: كلّم هنداً وأنت تريد غلام هند؛ لأن هذا يُشكل.

والقول في العير كالقول في القرية سواء.

تفسير القرطبي [٩/ ٢٤٦]

وعندما يقول الذي مر على هذه القرية: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (١) وحين تسمع ﴿أَنَّىٰ﴾ فاعلم أنها تأتي على معنيين.

المعنى الأول هو: «كيف»؟ وتعني الاستبعاد.

والمعنى الثاني وهو: «أين»؟، والمناسب لها هنا هو: كيف يحيي اللَّه هذه القرية بعد موتها؟

إن إحياء اللَّه لهذه القرية يتطلب أن يوجد فيها بشر لإقامة الجدران والعروش، وذلك حتى يتحقق العمران. إن الإنسان لازم لملزوم هو العمران، وهو دليل الحياة، عندما يسأل واحد مثل هذا السؤال: كيف يحيي اللَّه هذه القرية بعد موتها؟ فإن التساؤل يدل على أنه مؤمن، ولا يشك في أن قضية الحياة والموت من عند اللَّه، إنما هو يريد أن يتعرف على الكيفية التي يتم بها الإحياء.

وهذا المعنى موجود في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

إن إبراهيم عليه السلام لا يشك في أن اللَّه هو الذي يحيي، إنما يريد أن يرى الكيفية. إنه متأكد من وجود الحدث، ولكنه يتساءل عن كيفية الصنع البديع للَّه تعالى.

ومثال ذلك ـ وللَّه المثل الأعلى من قبل ومن بعد ـ نحن نرى الأهرام ولا نشك في أن الأهرام قد تم بناؤها بهذا الشكل، لكن عندما نراها فإننا نتساءل:

كيف تم بناؤها؟

وكيف نقل المصريون القدماء هذه الأحجار الضخمة؟

وكيف رتبوها هذا الترتيب البديع؟

---

(١) قال القرطبي: معناه من أي طريق وبأي سبب، وظاهر اللفظ السؤال عن إحياء القرية بعمارة وسكان، كما يقال الآن في المدن الخربة التي يبعد أن تعمر وتسكن: أنى تعمر هذه بعد خرابها.
فكان هذا تلهف من الواقف المعتبر على مدينته التي عهد فيها أهله وأحبته، وضرب له المثل في نفسه بما هو أعظم مما سأل عنه، والمثال الذي ضرب له في نفسه يحتمل أن يكون على أن سؤاله إنما كان عن إحياء الموتى من بني آدم، أي أنى يحيي اللَّه موتاها.
تفسير القرطبي [٣/ ٢٩٠، ٢٩١]

وكيف رفعوها إلى هذه المسافات والارتفاعات في زمان لم تكن به آلات رفع كالآلات المعاصرة؟!! ـ إعلم أن المثال للتقريب.

إذاً.. فتساؤل العبد المؤمن عن كيفية عمارة اللّه لهذه القرية، وتساؤل إبراهيم عليه السلام عن كيفية الإحياء بعد الموت، هو تعجب، والتعجب فرع الإيمان بالحدث.

والسؤال عن الكيفية معناه تيقن للحدث وإيمان بصانع الحدث. فعندما سأل السائل: كيف يحيي اللّه هذه القرية بعد موتها؟ فهو لا يشك في قدرة اللّه على الإحياء، ولكنه يريد أن يعرف الكيفية، والكيفية ليست مناط اعتقاد أو مناط إيمان.

إن اللّه لم يتعبدنا بأن نعرف الكيفية، وإنما تعبدنا بأن نؤمن بأنه قادر على إيجاد هذا الحدث، لأنه سبحانه القادر على كل شيء.

وفي حياتنا ـ وللّه المثل الأعلى ـ نجد أن إنساناً يقوم بتفصيل وحياكة ثوب غاية في الجمال فتتعجب أنت من جمال الثوب. إن حدث تفصيل الثوب قد تم.. عندما تتعجب أنت من الصنعة تقول للصانع: باللّه عليك كيف أتقنت صناعتك هكذا؟!

إنك في هذه الحالة تعبر عن عشقك لجمال الصنعة، فاشتقت إلى معرفة كيف صارت هذه الصنعة؛ لتعيش في ظل نعمة اللّه الخالق سبحانه على خلقه، حيث وهبهم مواهب متعددة يتقنون بها ما يفعلون.

إذاً.. فقول السائل: كيف يحيي اللّه هذه القرية بعد موتها؟ أو قول إبراهيم خليل الرحمن: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟ هذان القولان لا ينفيان الإيمان عن السائل عن عمارة القرية بالحياة، ولا عن إبراهيم عليه السلام. ولكن كليهما مشتاق إلى معرفة الكيفية ليعيش في جو الإبداع الجمالي لمن أنشأ هذه الصنعة.

وعندما يسأل العبد المؤمن: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[(١)] فنحن نجد لازماً وملزوماً، والمراد الاثنان. إنه يتكلم عن قرية خاوية على عروشها، ويتساءل عن كيفية الإحياء، والإحياء كما نعرف يكون للبشر الذين سيقومون بالحركة التي تعمر

---

(١) قال الماوردي: قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: يعمرها بعد خرابها.

الثاني: يعيد أهلها بعد هلاكهم.

النكت والعيون [١/ ٣٣١].

وجود تلك القرية، فكأن الناس لهم حياة ولهم موت، والقرية بأنقاضها لها حياة ولها موت.

وسؤال العبد المؤمن: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟ تأتي الإجابة لسؤاله إجابة علمية: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾(١).

لقد كان سؤال العبد المؤمن عن الكيفية، وهناك شيء تقتنع به بالدليل، وشيء تقتنع به بالمشهد. ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ﴾(٢) لم يجعل اللّه الدليل المشهدي في القرية، إنما جعل اللّه الدليل المشهدي في ذات السائل.

ويخبرنا الحق سبحانه بحوار دار بينه وبين هذا العبد لما أماته ثم بعثه، قال له: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾(٣).

فإما أن يكون الحق سبحانه قد كلمه كما كلم موسى عليه السلام، أو سمع العبد المؤمن صوتاً أو ملكاً. المهم أن سؤالاً قد حدث: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾؟ فأجاب العبد: ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾. إن إجابة العبد تعني أنه قد تشكك، وقد قال

---

(١) قال أبو عطية: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ﴾ تعالى... ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ معناه: أحياه وجعل له الحركة والانتقال، فسأله اللّه تعالى بواسطة الملك ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾؟ على جهة التقرير... فقال: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، قال ابن جريج وقتادة والربيع: أماته اللّه غدوة يوم ثم بعث قبل الغروب، فظن هذا اليوم واحداً فقال: «لبثت يوماً» ثم رأى بقية من الشمس فخشي أن يكون كاذباً فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ «فقيل له» ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾.

المحرر الوجيز [١/ ٣٤٨]

(٢) قال القرطبي: ﴿مِاْئَةَ﴾ نصب على الظرف، والعام: السنة؛ يقال: سنون عوّم وهو تأكيد للأول؛ كما يقال: بينهم شغل شاغلٌ.

تفسير القرطبي [٣/ ٢٩١]

(٣) قال القرطبي: اختلفُ في القائل له ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾، فقيل: اللّه جلّ وعزّ، ولم يقل له: إن كنت صادقاً كما قال للملائكة على ما تقدم.

وقيل: سمع هاتفاً من السماء يقول له ذلك.

وقيل: خاطبه جبريل.

وقيل: نبيّ، وقيل: رجل مؤمن ممن شاهده من قومه عند موته، وعمر إلى حين إحيائه فقال له: كم لبثت؟

قلت: والأظهر أن القائل هو اللّه تعالى؛ لقوله: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ واللّه أعلم.

تفسير القرطبي [٣/ ٢٩١]

المفسرون: إنه وجد اليوم قد قارب على الانتهاء أو انتهى، أو أنه عندما رأى الشمس مشرقة أجاب هذه الإجابة: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[1].

قال ذلك لأنه يستطيع أن يتحكم في تقدير الزمن، فهل هو صادق في قوله أم كاذب؟ إنه صادق. لماذا؟ لأنه لم ير شيئاً قد تغير فيه ليحكم بمقدار التغيير. فلو كان قد حلق ذقنه مثلاً، وقام بعد ذلك ليجد لحيته قد طالت، أو لو كان قد نام بشعر أسود.. وقام بعد ذلك بشعر أشيب، لو حدثت أية تغيرات فيه لكان قد لمسها، لكنه لم يجد تغيراً.. فماذا كان جواب الحق؟ قال: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾[2].

إننا هنا أمام قولين، العبد يقول: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، والله تعالى يقول: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾.

وأراد الحق سبحانه أن يدلل على الصدق في القضيتين معاً، فقال الحق: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾[3]. ونظر الرجل إلى طعامه وشرابه فوجد الطعام والشراب لم يتغير فيهما شيء. ومعنى عدم التغير أنه لم يمكث إلا يوماً أو بعض يوم.

---

(١) قال: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾
لأن الله تعالى أماته في أول النهار، وأحياه بعد مائة عام آخر النهار، فقال: ﴿يَوْمًا﴾، ثم التفت فرأى بقية الشمس فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

النكت والعيون [١/ ٣٣٢]

قال القرطبي: إنما قال هذا على ما عنده وفي ظنه، وعلى هذا لا يكون كاذباً فيما أخبر به؛ قال ابن جريج وقتادة والربيع: أماته الله غدوة يوم، ثم بُعث قبل الغروب، هذا اليوم واحد فقال: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا﴾، ثم رأى بقية من الشمس فخشي أن يكون كاذباً، فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

تفسير القرطبي [٣/ ٢٩٢]

(٢) قال القرطبي: فقيل: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾؛ ورأى من عمارة القرية وأشجارها ومبانيها ما دله على ذلك.

تفسير القرطبي [٣/ ٢٩٢]

(٣) قال القرطبي: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾ وهو التين الذي جمعه من أشجار القرية التي مر عليها.

تفسير القرطبي [٣/ ٢٩٢]

وبقيت مسألة موت الرجل مائة عام. قال الحق سبحانه للرجل: ﴿ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِۖ ﴾[١].

وحين يقول الحق: ﴿ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِۖ ﴾[٢] فهذا يدل على أن شيئاً عجيباً قد حدث.. إنه آية، والآية تعنى شيئاً عجيباً؛ وأراد الله أن يبين للرجل بالنظر إلى الحمار أن يجد أن عظام الحمار مبعثرة، ولا يمكن أن يحدث ذلك بين يوم وليلة؛ لا يمكن أن يموت الحمار ويرم جسمه ويتحلل، ثم ينتهي إلى رماد، ثم تبقى العظام مبعثرة. إن حدوث ذلك للحمار يتطلب زماناً طويلاً، فكأن نظرة العبد إلى حماره تجعله يصدق أنه لبث مائة عام؛ ونظرته إلى طعامه التي جعلته يقول: إنه لبث يوماً أو بعض يوم.

إذاً.. فالقضية هي قضية عجيبة، كيف طُوِيَ الزمن في مسألة الطعام؟ وكيف بسط الزمن في مسألة الحمار؟ إن الله يريد أن يثبت أنه هو القابض الباسط، إنه الله الذي يقبض الزمن في حق شيء ويبسط الزمن في حق شيء آخر.. والشيئان متعاصران معاً. وتلك العملية لا يمكن أن تكون إلا بقدرة عظيمة لا تملكها النواميس الكونية وإنما هي قدرة الله خالق النواميس.

إن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِۖ ﴾. من هم الناس الذين سيجعل الله من قصة الذي مر على تلك القرية.. آيةً لهم؟ كان لا بد أن يوجد أُناس في القصة، لكن القرية كانت خاوية على عروشها؛ فلا إنسان ولا بنيان. فهل هم الناس الذين كانوا في القرية أم سواهم؟

إن عزيراً هو الذي مر على تلك القرية كما قال جمهور العلماء. وعزير كان

---

(١) ﴿ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾. قال وهب بن منبه وغيره: وانظر إلى اتصال عظامه وإحيائه جزءاً جزءاً، ويروى أنه أحياه الله كذلك حتى صار عظاماً ملتئمة، ثم كساه لحماً حتى كمل حماراً، ثم جاءه ملك فنفخ فيه الروح، فقام الحمار ينهق؛ على هذا أكثر المفسرين.
وروي عن الضحاك ووهب بن منبه أيضاً أنهما قالا: بل قيل: وانظر إلى حمارك قائماً في مربطه لم يصبه شيء مائة عام؛ وإنما العظام التي نظر إليها عظام نفسه بعد أن أحيا الله منه عينيه ورأسه، وسائر جسده ميت، قالا: وأعمى الله العيون عن أرمياء وحماره طول هذه المدة.

تفسير القرطبي [٣/ ٢٩٤]

(٢) قال القرطبي: ﴿ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِۖ ﴾. ودلالة على البعث بعد الموت جعلنا ذلك.

تفسير القرطبي [٣/ ٢٩٤]

من الأربعة الذين يحفظون التوراة: وهم موسى عليه السلام، وعيسى ابن مريم عليه السلام، وعزير ويوشع(١) ـ ولقد أراه اللّه العظام كيف ينشزها بقدرته جلّ وعلا ثم يكسوها لحماً(٢). رؤية عين لقد قال عزير من قبل: كيف يحيي اللّه هذه القرية بعد موتها؟ والحق سبحانه أراه التجربة عملياً. قال له: انظر إلى عظام حمارك.. كيف ننشزها ـ أي نرفعها ـ أي ترفع كل عظمة من الأرض، وتركب كل عظمة في مكانها، وبعد ذلك تأتي الحياة لتدب في الحمار. لقد وجد عزير الحياة في نفسه. ورآها في الحمار.

وبعد ذلك تذكر عزير قريته التي خرج منها، فأراد أن يعود إليها، ولما عاد إلى قريته وجد أمرها قد تغير تغيراً يتناسب مع مرور مائة عام. وكان في هذه القرية مولاة لأسرة العزير ـ أي: جارية ـ وكانت هذه الأمة قد أصابها العمى وأصبحت مقعدة. فلما دخل العزير عليها وقال: أنا العزير. قالت الأمة: ذهب العزير من مائة عام، ولا ندري أين ذهب، ولم يعد. فكرر عليها القول: أنا العزير. قالت الأمة: إن للعزير علامة، وهذه العلامة، أنه كان مجاب الدعوة، فإن كنت حقاً العزير فادع اللّه أن يرد عليَّ بصري. وأن يشفيني من مرضي هذا.

إن الأمة لم تنس نفسها، والعزير أراد أن يؤكد لها أنه هو؛ فدعا اللّه لها برد البصر والقيام من القعود فبرئت الأمة باستجابة اللّه لدعاء العزير، فلما برئت نظرت

---

(١) قال الربيع بن أنس: «نزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير، يقرأ الجزء منه في سنة، لم يقرأها: إلا أربعة نفر: موسى، ويوشع، وعزير، وعيسى».
وقال الشيخ محمد أبو شهبة معقباً على ذلك:
لا أدري كيف يقبل عقل أنها حمل سبعين بعيراً، وإذا لم يقرأها إلا أربعة فلماذا أنزلها اللّه؟

الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير [٢٠٢]

(٢) قال البغوي: قوله تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾.
قرأ أهل الحجاز والبصرة ننشرها بالراء معناه نحييها يقال: أنشر اللّه الميت إنشاراً ونشره نشوراً قال اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس: ٢٢].
وقال في اللازم: ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].
وقرأ الآخرون بالزاي أي نرفعها من الأرض ونردها إلى مكانها من الجسد ونركب بعضها على بعض، وإنشاز الشيء رفعه وإزعاجه، يقال: أنشزته فنشز أي رفعته فارتفع.
معالم التنزيل [١/ ٣٢٠]

إليه فوجدته هو العزير فذهبت إلى قومها، وأعلنت أن العزير قد عاد[(١)].

وبعد ذلك ذهب العزير ليرى ابنه، فوجده رجلاً كهلاً عجوزاً قد بلغ من العمر مائة سنة، وكان العزير لا يزال شاباً، ولنقل إنه كان في الخمسين من عمره، ولذلك نرى الشاعر يقول ملغزاً:

ومـــــا ابـــــن رأى أبـــــاه وهـــو فـــي ضـــعـــف عـــمـــره؟

لأن العزير قد أماته الله تعالى في عمر الخمسين، وبعثه الله على نفس عمره، أما ابنه فقد بلغ من العمر مائة؛ لأنه لم يمت، ولم يبعث؛ بل عاش حياة متواصلة. وهكذا أصبح الولد في عمر المائة، وأصبح الوالد في عمر الخمسين.

فقال ابن العزير: إنني كنت أعرف لأبي علامة؛ إنها شامة بين كتفيه. فلما كشف له العزير كتفيه وجد الابن العلامة التي يعرفها في أبيه.

وقال بعض المفسرين شيئاً آخر: إن بختنصر جاء إلى بيت المقدس، وخربها، وحرق التوراة.. إلا أن رجلاً قال: إن أباه قد دفن في مكان من

---

(١) قال قتادة عن كعب والضحاك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما. والسدي عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لما أحيا الله تعالى عزيراً بعد ما أماته مائة سنة ركب حماره حتى أتى محلته، فأنكره الناس وأنكر الناس ومنازله، فانطلق على وهم حتى أتى منزله، فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة، قد أتى عليه مائة وعشرون سنة، وكانت عرفته فقال لها عزير: يا هذه، هذا منزل عزير؟ قالت: نعم، هذا منزل عزير، وبكت وقالت: ما رأيت أحداً من كذا وكذا سنة يذكر عزيراً. قال: فإني أنا عزير، قالت: سبحان الله، فإن عزيراً قد فقدناه من مائة سنة لم نسمع له بذكر، قال: فإني أنا عزير كان الله أماتني مائة سنة ثم بعثني، قالت: فإن عزيراً كان رجلاً مستجاب الدعوة، ويدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية، فادع الله أن يرد لي بصري حتى أراك، فإن كنت عزيراً عرفتك، فدعا ربه ومسح بيده على عينيها فصحّتا، وأخذ بيدها وقال: قومي بإذن الله تعالى، فأطلق الله رجليها، فقامت صحيحة، فنظرت إليه فقالت: أشهد أنك عزير، فانطلقت إلى بني إسرائيل وهم في أنديتهم ومجالسهم، وابن لعزير شيخ كبير، ابن مائة سنة وثماني عشرة سنة وبنو بنيه شيوخ في المجلس، فنادت: هذا عزير قد جاءكم، فكذبوها، فقالت: أنا فلانة مولاتكم، دعا لي ربه فرد عليّ بصري وأطلق رجليّ، وزعم أن الله كان أماته مائة سنة ثم بعثه، فنهض الناس فأقبلوا إليه، فقال ولده: كانت لأبي شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه، فكشف عن كتفيه فإذا هو عزير.

معالم التنزيل [١/ ٣٢١]

المدينة نسخةً من التوراة.. فجاءوا بالنسخة، فقال العزير: وأنا أحفظها. وقال عزير التوراة كما وجدت في النسخة.. فصدق الناس أنه العزير[١].

تلك هي الآية؛ وتعجب الناس أن الابن في سن مائة، والأب في سن الخمسين.

وقوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢]. إن هذا القول قول العزير، فهل معنى ذلك أنه لم يكن يعلم من قبل أن الله على كل شيء قدير؟ لا.. لقد كان يعلم علم الاستدلال. والآن قد أصبح يعلم علم المشهد.

إذاً.. فقد قال العزير: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. بعدما تبين له، فماذا تبين له؟ لقد تبين له أن الله سبحانه قادر على أن يبسط الزمن ويقبضه في آن

---

(١) وقال السدي والكلبي: لما رجع عزير إلى قومه وقد أحرق بختنصر التوراة، ولم يكن من الله عهد بين الخلق، فبكى عزير على التوراة، فأتاه ملك بإناء فيه ماء، فسقاه من ذلك الماء، فمثلت التوراة في صدره، فرجع إلى بني إسرائيل وقد علمه الله التوراة وبعثه نبياً، فقال: أنا عزير فلم يصدقوه. فقال: إني عزير قد بعثني الله إليكم لأجدد لكم توراتكم. قالوا: أَمْلِهَا علينا. فأملاها عليهم من ظهر قلبه، فقالوا: ما جعل الله التوراة في صدر رجل بعدما ذهبت، إلا أنه ابنه فقالوا: عزير ابن الله.

معالم التنزيل [١/ ٣٢١]

(٢) قال القرطبي: المعنى في قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ أي لمّا اتضح له عياناً ما كان مستنكراً في قدرة الله عنه قبل عيانه، قال: أعلم.

قال ابن عطية: وهذا خطأ؛ لأنه ألزم ما لا يقتضيه اللفظ، وفسر على القول الشاذ والاحتمال الضعيف، وهذا عندي ليس بإقرار بما كان قبلُ ينكره عما زعم الطبري بل هو قول بعثه الاعتبار؛ كما يقول الإنسان المؤمن إذا رأى شيئاً غريباً من قدرة الله تعالى: لا إله إلا الله؛ ونحو هذا. أبو علي: معناه: أعلم هذا الضرب من العلم الذي لم أكن علمته.

قلت: وقد ذكرنا هذا المعنى عن قتادة، وكذلك قال مكي رحمه الله: قال مكي: إنه أخبر عن نفسه عندما عاين من قدرة الله تعالى في إحيائه الموتى، فتيقن ذلك بالمشاهدة، فأقر أنه يعلم أن الله على كل شيء قدير، أي أعلم أنا هذا الضرب من العلم الذي أكن لم أعلمه على معاينة.

تفسير القرطبي [٣/ /٢٩٦]

واحد. وهذه المسألة تفسر ما يقوله العلم عن تعليق الحياة. إن معنى تعليق الحياة يشبه ما تفعله بعض الثعابين عندما تقوم بالبيات الشتوي؛ أي تنكمش في الشتاء في ذاتها ولا تبدي حركة، وتظل هكذا إلى أن يذهب الشتاء. ومدة الشتاء لا تحسب من عمر الثعابين؛ لأنه لا تحدث لها عملية الأيض. ولذلك يقال: إن ذلك هو تعليق الحياة.